فهد المبارك



الجزء الثالث

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

المارك ، فهد
من شيم العرب .-ط٤.- الرياض.
٣٨٦ ص ؛ ١٧×٢٤ سم
ردمك : ١ - ٣٥١ - ٣٦ - ٩٩٦٠ (مجموعة)
٢ - ٣٥٦ - ٣٦ - ٩٩٦٠ (ج٣)
١- القصص العربية - السعودية ٢- القصص الاجتماعية
٣- العرب - العادات والتقاليد - قصص أ-العنوان
ديوي ٨١٣,٠٨٩٥٣١ ٢٠/٢٤٩٣

رقم الإيداع : ٢٠/٢٤٩٣
ردمك: ١ - ٣٥١ - ٣٦ - ٩٩٦٠ (مجموعة)
٢ - ٣٥٦ - ٣٦ - ٩٩٦٠ (ج٣)

الطبعة الخامسة

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

الفصل الأول

الشجاعة الحربية

أتدعو جواداً من يجود بماله ومن جاد بالنفس الكريمة اجود


بسم الله الرحمن الرحيم
١٤٠٩

ولئن كانت الجماهير العربية لا تذكر ما تفخر به خاصة في القرن العشرين سوى كفاح ونضال ابناء عمنا الجزائريين ، وتنسى ما قام به اخواننا الليبيون من بطولات خارقة ، فان التاريخ لا ينسى كفاح اولئك الابطال الاشاوس ..

وعندما ننظر الى البطولة التي قام بها الجزائريون بعين ملؤها التقدير والاعجاب ، ومن ثم نرجع البصر كرة اخرى الى البطولة التي ابداها الليبيون امام قوى الشر والطغيان والظلم الطلياني ، عند ذلك لا يسعنا الا ان ننظر لهؤلاء نظرة الاعجاب والتقدير نفسها التي ننظر بها اولئك .

اما ان يكون النصر حالف الجزائريين بنسبة اكثر واسرع مما حالف به الليبيين ، فهذا امر يعود الى عامل الزمان الذي بقدر ما كان مساعدا بجانب الجزائريين كان معاكساً لليبيين .

فالفرق بين الجانبين يأتي كما يلي :

اولا — بينما كانت قيادة الجزائريين موحدة ، كانت قيادة الليبيين مبعثرة ، — فالمجاهدون الذين في ولاية طرابلس الغرب ، قيادتهم منفصلة عن المجاهدين الذين في برقة ، بل واكثر من ذلك مجاهدوا ولاية طرابلس أنفسهم لم تكن قيادتهم موحدة ، بل كان الشقاق بين القادة بالغاً اوجه وهم في ساحة الحرب .

ومما لا شك فيه انه لو اتحد الطرابلسيون والفزانيون والبرقاويون تحت قيادة موحدة كما هي الحال باتحاد قيادة الجزائريين لما استطاع المستعمرون الطليانيون ان يستولوا على شبر من ارضهم .

ثانياً — بينما كانت الحرب الجزائرية الفرنسية في الحين الذي كانت الدول

رائد المجاهدين وشيخ الشهداء

- ١ -

اذا كانت الشجاعة من حيث هي وأنى كانت صفة من الصفات المحمودة التي تفرض الاحترام لصاحبها ، فان الشجاعة في سبيل الله ثم في سبيل الوطن سوف ينال صاحبها خلود الذكر الابدي العاطر في هذه الدنيا وشرف الشهادة في دار البقاء .

ولئن كان هذا الفصل بالذات خاصاً بشجاعة الحروب بالمفهوم العام ، سواء ما كان منهـــا في سبيل مجد القبيلة او ما كان في سبيل المجد الفردي فان بطل هذه القصة بالدرجة الاولى وبطلي القصتين اللتين بعدها يمتازون بـــلا شك على غيرهم من حيث سمو الهدف ونبل القصة وشرف الغاية .

ومما لا شك فيه باننا كعرب بعد كارثة فلسطين ، نزلت اسهمنا بين شعوب العالم ، ولم يسبق لنا من مجد تاريخي ما عدا ما نجتره من مجد اسلافنا الغابرين ، حتى اصبح المرء منا يخجل من ان يقول عن نفسه بأني عربي ، الى ان جاءت ثورة الجزائريين ، الذين بيضوا وجه امة العرب واعادوا لنا الثقة بانفسنا من جديد بوقوفهم امام حلف الاطلسي باسلحته الحديثة وبقهرهم لدول الاستعمار الذين تكالبوا عليهم وفي طليعتهم دولة فرنسا التي عرفت بانهـــا من اشد دول الاستعمار غطرسة وكبرياء ولكنهـــا بالتالي حنت رأسهـــا ذليلة مهـــانة امام شجاعة اخواننا الجزائريين ، الذين سجلوا تاريخ بطولتهم بمداد من المجد الخـــالد ..

العربية وشعوبها اكثرها او كلها تمد الجزائريين بالسلاح وبالمال .. ولو طلب الجزائريون رجالا متطوعين من اخوانهم العرب لوجدوا كثيراً من يشاركهم ، الا ان الجزائريين انفسهم كانوا لا يطلبون من اخوانهم الا السلاح والمال اللذين كانا يتدفقان عليهم من اخوانهم كواجب مقدس ..

بينما كان الليبيون محرومين من ذلك لاسباب كثيرة وفي مقدمتها او يكاد ان يكون السبب الرئيسي هو انه لم يكن هناك دول عربيه مستقلة عندما اندلعت نار الحرب بين المستعمرين الطليانيين وبين المجاهدين الليبيين في اواخر شهر سبتمبر ١٩١١ بل كانت البلاد العربية مشتتة فمنها ما هو تحت الاستعمار الفرنسي كالمغرب العربي وتونس والجزائر .. هذا بالنسبة للبلاد العربية المجاورة والقريبة لليبيا .. اما البلاد الاخرى كسورية ولبنان والاردن وفلسطين والعراق فهذه البلاد كانت في بداية الحرب الليبية الطليانية تحت الحكم التركي وحتى ليبيا كانت تحت الحكم التركي ، وقد حاولت تركيا ان تدافع عن البلاد التي في حوزتها محاولة يائسة حيث تولى القيام بالعمليات الحربية انور باشا الذي كان نائباً للقائد العام للجيش التركي في الحرب العالمية الاولى . وكان في معيته مصطفى كمال (اتاتورك) وعزيز بك المصري ، ولما كانت الحكومة التركية في ذلك العهد تلفظ آخر انفاسها ومشغولة في التيارات الداخلية المتضاربة وفي الحروب البلقانية فانه من بدهيات الامور ان تزيح عن نفسها عبء المسؤولية في الحرب الليبية الطليانية وذلك بموجب المعاهدة التركية الطليانية الكائنة في اوشي (لوزان) فى ١٨ أكتوبر ١٩١٢ وتنص تلك المعاهدة على ايقاف الحرب بين الدولتين ، وان تتعهد الحكومة التركية بأن تسحب ضباطها وجنودها بل وحتى موظفيها المدنيين من ليبيا ، او ما يسمى ذلك الوقت بطرابلس الغرب .

ومن الواضح ان هذه المعاهدة على حساب الشعب الليبي وتعني بعبارة اوضح تسليم ليبيا للطليان ، وبموجب هذه المعاهدة المشؤومة رحل الجيش التركي عن

البلاد بقيادة انور باشا وقبل ان يغادر القائد انور البلاد ، ذهب الى السيد احمد الشريف السنوسي ليبلغه ان الخليفة منح ليبيا استقلالها الكامل على ان يدافع رجالها عن وطنهم وانـــه اي السيد الشريف هو الحاكم الشرعي للبلاد (بحكم ان الملك ادريس الحالي كان حديث سن وقتها) ، وواضح ان هـــذا الامر يحمل في طيه ظاهرتين مزدوجتين : فهو من حيث الظاهر المجازي منح ليبيا استقلالها على رأي (خليفة رب العالمين) ولكنه من حيث الواقع العملي هزيمة شنعاء وجبن صريح من الاتراك عن ملاقاة العدو ، ولكن هذا الاستسلام والتخاذل والجبن من الحكومة التركية ، هل فت في عضد المجاهدين البواسل الليبيين ؟ .. ام انهم اندفعوا اكثر بعزيمة صادقة ونضال الابطال الاشاوس امام جيش الطليان الذي يفوقهم عدداً وعدة ، ويفوقونه شجاعة وصبراً وجلداً وتضحية وايماناً .

عندما ذهب القائد التركي انور باشا الى استنبول ، وولى السيد احمد السنوسي القيادة العسكرية في الناحية الشرقية لعزيز بك المصري ، واما الناحية الغربية فقد كان يتولى قيادة المجاهدين رجال من أهل البلاد انفسهم .

اذا كانت الجماهير تنسى فان التاريخ لا ينسى

وفي ١٦ مايو ١٩١٣ حشد الطليانيون اكبر قوة عندهم ليضربوا بها المجاهدين لـكي يحتلوا الجبل الاخضر ولكن المجاهدين الابطال صدوا هجومهم وهزموهم هزيمة شنعاء .

وعندما شعر الطليان بان كثرة عددهم وضخامة معداتهم الحربية تحطمتا امام شجاعة ابطال ليبيا ، عند ذلك راحت حكومة ايطاليا تبذل مساعيها السياسية من جانبين : جانب الحكومة التركية لتضغط عليها من اجل ان تسحب عزيز المصري وما تبقى لها من جنود ومعدات .. ومن الجانب الآخر

عمر المختار شيخ الشهداء ورفاقه

الصورة نقلها المؤلف عن صورة زيتية قدمت للملك ادريس اثنـاء زيارته لتركيا ويقال انها كانت في قصر يلدز وهي الآن معلقة في السفارة الليبية في انقرة



ولما رأيت الموت تهفو بنوده وبانت علامات له ليس تنكر



وأقبلت والأعداء، من كل جانب   وثار عجاج اسود اللون أكدر
صبرت ومثلي صبره ليس ينكر   وليس على ترك التقحم يعذر

علي بن الجهم



راحت تسعى نحو الحكومة المصرية التي تعتبر وقتذاك حكومة انجليزية ، لكي تمنع اي امداد يأتي الى المجاهدين ، وقد كللت مساعيها بالنجاح ، عند كلتا الحكومتين ، فاما من خصوص الحكومة التركية فقد اصدرت امرها الى عزيز المصري لا ان ينسحب من الجبهة بمفرده فحسب ، بل لينسحب بكامل معداته الحربية وما تبقى من الجنود الاتراك ، وقد نفذ المصري الامر بحذافيره . وعندما بلغ السيد احمد الشريف السنوسي الخبر بأن عزيز المصري اعد العدة وذهب بجنوده ومعداته الى السلوم لكي يركبّ في الباخرة بحراً الى الأستانة ، انتدب السنوسي شيخ الشهداء عمر المختار بأن يلحق به ليأخذ منه المعدات التي هم بأمس الحاجة اليها ، ولكن المصري امتنع عن ان يسلمها للمجاهدين ، بحجة ان تسليم الاسلحة التي مع جنوده الى المجاهدين الليبيين لا يتفق مع الاصول الحربية التي تقضي بعد انعقاد الصلح بين تركيا وايطاليا بأن لا يسلم الجيش العثماني اسلحته الى اعداء ايطاليا ، ومن ناحية اخرى يرى انه ينفذ الاوامر التي وصلت اليه من حكومة (الاستانة) .(١)

هذه نتيجة مساعي الطليان تجاه حكومة تركيا ، اما مساعيهم تجاه حكومة الانجليز فقد نجحت ايضاً نجاحاً ملحوظاً بصورة جعلت حكومة مصر او على الاصح المعتمد البريطاني (اللورد كتشنر) يتخذ اجراءات صارمة من شأنها منع جميع من اراد ان يتطوع من الضباط او الجنود المصريين بجانب المجاهدين الليبيين ، كما اتخذ اجراءات مماثلة نحو رؤوساء القبائل المصرية المتاخمة للحدود الليبية ، وفي الوقت نفسه بدل المأمورين المصريين الذين على رأس الحدود المصرية الليبية بمأمورين انجليز ، ومهمة هؤلاء الانجليز هي منع اية قافلة

(١) . هذه الجملة نقلتها برمتها عن الكتاب الذي بعنوان (عمر المختار ضحية الاستعمار الوحشي) . ص ٥٤ لمؤلفه الاستاذ محمود شلبي .

ذاهبة من والى مصر وليبيا ..

هذه هي حالة المجاهدين الليبيين — مقاطعين من جميع العالم مقاطعة اقتصادية واجتماعية وحربية ، بكل معنى من معاني المقاطعة ، والدولة التي كانت تحكمهم تخلت عنهم ، وقائـد عملياتهم سافر بجنوده ومعداته ..

يضاف الى ذلك الوباء والمجاعة اللذان حلا بالبلاد . في عـــامي ١٩١٦ و ١٩١٧ ، حتى بلغ الامر الحد الذي لايمكن ان يتصوره العقل او يطيقه احتمال الانسان ..

هذه الظروف الشديدة القاسية التي عاشها الليبيون عندما نتدبرها بامعان
[illegible] الجزائريون ،

في تعبيري فانني لم اندم على ماقلته لانني لولم اقل تلك الكلمة لما استطعت أن اعرف عنك يا بني هذه الجرأة وهذه الموهبة التي كشفت لي عنك سجية الصراحة والشجاعة في اعلان الحق .. ذلك انني يا بني تعودت ان اقول في جميع مراحل حياتي اخطأت .. ولكنه يندر ان اجد من يقول لي اخطأت فيما اذا حدث مني شطط كهذا الشطط ..

وختم الشيخ حديثه بقوله :

– انني يا بني بهـذا السن الذي اجتزته لابد ان تخرج مني كلمة لم ازنها بحكم تقدم سني كهذه الكلمة وامثالها .. ولذلك اكون بحاجة ماسة الى رجـل مخلص جريء كشخصك ينبهني الى خطيئتي اذاوقعمني زلل ويرشدني الى الصواب اذا اخطأت ، واشكو اليه همومي اذا سئمت ، ولك عليّ يا بني ان اتعهد لك بما يقوم بأودك انت ومن تعول :

فأجابه النجار قائلا :

اما انني اترك قدومي ومنشاري واتخلى عن مهنتي التي هي مصـدر فخاري ، واظل عندك بصورة انقطع بها عن عملي .. فهذه الناحية من المستحيل ان اوافق عليها ، ولكن لك علي انني في حـالة فراغي سوف آتي اليك وفي الوقت الذي يبدو لك بي حاجة تستدعيني بها ، لك علي ايضاً ان اترك عملي والبي طلبك في أي وقت تريدني أحضر به ..

ومن تلك اللحظة ظلت أواصر الصداقة تزداد رسوخاً ، بين الشيخ والنجار وأعجب ما في الامر أن الجالسين الذين كانوا يرون الشيخ بمنزلة استاذهم الاكبر ، اصبح الآن تلميذاً امام النجار يتلقى منه النصائح والارشادات ..

نقلت هذه الحادثة عن بطل القصة فهد الرقابي نفسه رحمه الله كما انني وجدت

ما يؤيدها من عدة مصادر موثوقة ، ومن جملة هذه المصادر المرحوم عبد العزيز العتيق ، ابن الشيخ يوسف صاحب الترجمة ، وقد سألته في حينه عن هذه القصة فلم يعارض صحتها ، بل أكد لي بأن الرقابي ثقة وصريح ، ولا يتحدث الا بما يعتقده ، وزاد في ذلك تأكيداً انه كان يذكر ان بين والده وبين الرقابي صلة روحية وطيدة العرى بالرغم من فارق السن بينهما ، وهناك رواية اخرى نقلتها عن المرحوم الشيخ عبد العزيز بن زيد تؤيد صحة هذه القصة ، يقول ابن زيد :

– ان الشيخ يوسف العتيق في آخر ايامه كان لا يذهب الى مكان ما الا والرقابي بجانبه ، وفي ذات يوم ذهب الاثنان الى منزل احد اقارب يوسف في شرقي البلاد من الناحية الجنوبية .. وظل الرقابي في منزل شخص من ذوي القربى ليوسف مقدار نصف الساعة .. ثم بعد ذلك طلب الاذن من صاحب المكان على ان يعود بعد ساعة لصاحبه ، فخرج وبعد مضي المدة التي حددها عاد الى صاحبه يوسف ليخرجا سويا ولكنه في عودته هذه الاخيرة جاء صاحب المنزل بصحن من التمر الطيب واقداح من اللبن وكوبا مملوء من زبد الضأن وقدمه للضيفين ، فرفض الرقابي ان يتناول شيئاً من الطعام بحجة انه صائم .. وكان صاحبه اي الشيخ يوسف يذكر انه لم يكن صائماً فألح عليه كما الح ايضاً عليه صاحب المنزل ولكن لم يفد الحاحها بشيء فتناول يوسف حبة من التمر وشرب جرعة من اللبن ثم خرجا سوياً ..

وعندما ابتعدا عن المنزل الذي خرجا منه ، راح الرقابي يقبل رأس الشيخ يوسف قائلا :

– ناشدتك الله ان تخبرني بالحقيقة .

فجاوبه الشيخ :

– اي حقيقة تعني .؟ فقال النجار :

– اليس اقاربك البخلاء قدموا لك الطعام بعدما خرجت من عندهم ، ومن ثم ذهبت انت توبخهم قائلا لهم لماذا لم تقدموه عندما كان فلان رفيقي موجوداً هنا ، ثمّ انك غضبت من تصرفهم هذا ورفضت ان تتناول حبة منه ، وبعدما عدت اليكم جاء احد اقاربك بطعامه يريد ان يرضيك لا ان يضيفني .. ولذلك اعتذرت بالصيام ، ثم اعاد العبارة عليه ثانية قائـــلا : ناشدتك الله اليس الامر كذلك ..؟

فأجابه الشيخ قائلا : وهو يبتسم

– يبدو انك تستخدم الشياطين وتستعمل السحر والا ما الذي يخبرك بما حدث في غيابك بهذه الامور التي تضع فيها النقاط على الحروف ..

فضحك النجار وذهب يقبل رأس الشيخ ثانية وهو يقول :

– لقد تحققت فراستي بك يا ابا فلان ، فلله درك على اعراضك عن طعامهم من اجل صديقك ..

محال ان ينال الأبي ثقة المستبد !!

-٢١-

ضدان لن يجتمعا ، وان اجتمعا فان ذلك نادر ، وهما الحاكم المستبدالمطلق، والرجل الابي ، فالاول لا يريد احـداً يقف منه موقف الرجل المحترم لنفسه، المعتز بكرامته ، المدافع دون عقيدته ورأيه ، ولا يقبل من اعوانه ومواطنيه الا ان يكونوا آلة مسخرة مطيعين لاوامره كيفما كانت مذعنين لارادته مهـما انحرفت عن السبيل ، مهللين ومكبرين لسلطانه مهما جار وطغى ، ومن لم يكن كذلك فهو مغرور متكبر يجب اذلاله ، والنيل من كرامته ، بحق او بباطل ، لكي لا يفسد اخلاق المواطنين المخلصين ، ومقياس الاخلاص بنظر الاول هو مـا يبديه له ضعفاء النفوس من انحناء وتذلل وخنوع ..

ومقياس الاخلاص بنظر الثاني هو مصارحة ولاة الامور وجهاً لوجه بكل خفية وبينة ، ومناصرة الضعيف والاخذ بيد المظلوم مهما قل مناصروه، وعدم الاستكانة والخنوع للمخلوق الفاني مهما علا شأنه ، وعظم سلطانه .

وليس الذي وقع بين عناد القاضب[1] وسبهان العلي بن سبهان[2] بدعاً من نوعه، بل وقع ويقع في كل زمان ومكان بين الحاكم الذي يرى ان من يحتفظ بكرامتـه

---

١ عناد من اقطاب بلدة الجوف وهو رئيس فخذ يدعى بالسهيب. وفي يوم ١٨ رمضان ١٣٧٥ التقيت بالامير عبد الرحمن السديري بدمشق الوالي على بلدة الجوف في ذلك الوقت وحتى الآن وقد طلبت منه ان يوافيني بتاريخ وفاة بطل القصة... وبعدما وصل الجوف جاءت منه رسالة يفيدني ان وفاته حدثت في رجب ١٣٤٨هـ .

٢ سبهان ورد اسمه في هذا السفر اكثر من مرة وهو غير سبهان السلامة الذي كان وزيراً لمال عند محمد الرشيد ومستشاراً له

ولا يتملق ولا ينافق له عدو مبين ، وبين المواطن المخلص الذي لا يؤمن بهـذا المنطق الواهي .

ويقع تاريخ هذه الحادثة في سنة ١٣٢٩ هـ وذلك عندما كان سبهان العلي واليا على مدينة الجوف من قبل امير حائل وقتذاك سعود العبد العزيز بن متعب الرشيد ، ومن المعروف ان اهل الجوف « خاصة في ذلك العهد » من اكبر رجال الجزيرة العربية نفساً واشمهم انفا واعزم جانبا لا يبيتون على الضيم ، ولا يرضخون لعسف الحاكم المستبد مهما تكن قوته ومهما بلغ عقابه من الشدة والقسوة ، والذي درس ادبهم الشعبي يتضح له مدى ما يتمتع به افرادهم من اباء وشمم ، وتمرد على الحاكم اذا استبد وجار ..

ولولا انني اخشى ان يبعد بنا السبيل عن صميم البحث الذي نستهدفه ، لولا ذلك لاتيت بشيء من اناشيدهم الشعبية التي تعبر تعبيراً جليا عما تصبو اليـه نفوسهم الجبارة من طموح واعتـداد بالنفس ، وشعور بالكرامة ، وعلى سبيل الاختصار أود ان آتي بنماذج وجيزة من بعض الامثلة الشعبية ، امثال قول بعضهم (يوم ديك خير من الف يوم دجاجة) وهذا المثل أشبه ما يكون بمثل سبق أن قرأته بمجلـة الرسالة المصريه في عددها رقم ٩٣٤ وتاريخ ١٩٥٢ نوفمبر خلاصتـه كما يلي :

(الافضل ان تكون ذيل أسد من ان تكون رأس كلب) .. يقال ان هذا المثل يوناني ، ومن المعلوم ان مثل اهل الجوف ابلغ معنى ..

والمثل الاعظم من ذلك عند اهل الجوف لكونه وقع عمليا هو قول احدهم (ما عقب الجماعة مقعد) ..

والمعنى ان ابن رشيد واظن انه طلال ، عندما نفذ حكم الاعدام في عـدد من اعيان اهل الجوف ، بعد ذلك عفا عن واحد منهم لاجل صداقة قديمـة بين

المعفو عنه وبين الامير ، فرد هذا قائلا : اتقتل رفاقي وتعفو عني .. فهذا العفو منك ليس مقبولاً ، ولا اريد ان احيا يوما واحدا بعد رفاقي ... فارغم الامير وتحداه حتى نفذ فيه الحكم ..

وبطل قصتنا هذه – عناد القاضب–ليس الا واحداً من نمط اولئك الرجال وبقدر مـــا كان عناد ابياً شهماً وفياً وقوراً منيع الجانب متكبرا على الجبابرة المتغطرسين ، بقدر ما كان لينا متواضعاً رحيماً بالفقراء عاطفياً نحو المساكين، متسامحاً عن عثرة اصدقائه ، وبحسن اختياره لهم ..

وكان بمسلكه وسيرته يعبر عن الصفات التي اوصى بها رب السيف والقلم محمود سامي البارودي بقوله :

وكن وسطاً لا مشرئباً الى السهى   ولا قانعاً يبغي التزلف بالصغر
واحمد اخلاق الفتى مـــا تكافأت   بمنزلة بين التواضع والكبر

حقد ليس له مبرر

اعتقد أمير الجوف سبهان ان عناداً يضمر له العداوة والكره ، وانه يتآمر عليه الامر الذي جعله يضمر الحقد لعناد ، ويحاول ان يجد عليه ادنى سبيـــل ليأخذه اخذ عزيز مقتدر .. وفي الحين الذي كان سبهان يضمر السوء لعناد ، ويحاول ان يبطش به عندما يجد اية زلة يدينه بها ، كان عناد لا يحمل في نفسه لسبهان ولا لمن ولاه اي كره ، اللهم الا انه يكره الاساليب التي لا ينال المرء بها ثقة حاكم ما الا بقدر ما يدفعه من تضحيه بكرامته وهدر لإبائه وقتـــل لشممه ، فكان معروف الرصافي وعناد القاضب يلتقيان على صعيد واحد عنده قال الرصافي :

وتكره نفسي كل عبد مذلل   وقد كرهت حتى الطريق المعبدا

والغريب في الامر ان المعروف عن سبهان انه يحمل نفسيه كنفسية عناد من حيث قوة الشكيمة وعزة النفس وثباته في الحصار وموقفه ايضاً القوى من النوري بن شعلان[1] كل ذلك يعطينا دليلاً بأن الرجل يتمتع بقسط كبير من شموخ الانف واباء النفس ، ولكن الذي يبدو ان بعض الناس يريد ان تكون مزايا الرجولة حكراً لنفسه وموقوفة على شخصه ، واذا كان هناك من ينافسه عليها فانه لا يدخر وسعاً من محاربته وقهره ان امكنه ذلك ..

وهذا ما جعل سبهان يقف من عناد موقف الحاقد الذي يريد ان ينتقم منه بأية وسيلة كانت ..

ومن الامور التي جعلت سبهان يتضاعف حقده على عناد ، هي ان عنادا طموح باختياره لاصدقائه فلم يقع اختياره الا على فتي كان من خيرة حاشية سبهان ومن اعزهم نفساً واوفاهم عهداً وارجحهم عقلا واشجعهم قلباً ، الا وهو (سويلم الشعلان)[2]

لم يخامر الوالي سبهان ادنى شك في اخلاص سويلم له ، ولكنه رغم ذلك تضايق من صداقة عناد له فراح يوجه لسويلم السؤال التالي :

— ما معنى هذه الصداقة التي توطدت عراها بينك وبين عناد ؟..

---

١ راجع صفحة ٨٧ ج ٣ من شيم العرب للمؤلف.

٢ توفي سويلم رحمه الله في عام ١٣٨٢ ه الموافق ١٩٦٢ ولسويلم مواقف في الوفاء والشجاعة تستحق الاعجاب والتقدير وفي اليوم الذي جرى فيه تنفيذ المؤامرة لقتل زامل بن سبهان وسبهان نفسه المذكور اعلاه كان سويلم هو الفارس الوحيد الذي كافح وناضل دون سبهان حتى قتل سبهان ٠

– ليس لها أي معني اللهم الا ان عناداً بدا بعد يد الصداقة ورأيت انــه شخص فيه من دلائل الرجولة ومظاهر الفتوة والوقار ما هو جدير بالاحترام ، فأبديت له الصداقة والوداد بمثل ما بدا لي منه ..

– احذر ان يخدعك هذا الماكر المتغطرس الذي يضمر لنا من العــداوة والبغضاء اكثر مما تتصوره وهو في الوقت ذاته يرى لنفسه من القدر فوق مـــا تستحقه منزلته . ولكنني بعون الله سوف اتخذ نحوه اجراءات تمكنني من تحطيم منزلته بين قومه لكي اقضي على ما في نفسه من غرور وكبرياء ..

– من رأيي ان لا تتحدى الرجل بشيء قد لا تجني من ثمره خـيراً اللهم الا اذا كان لديك من الوثائق ما يجعلك تدينه بالخيانة للامارة ، فعندئذ لك ان تتخذ نحوه ما شئت من عقاب ..

لقد بذلت جلّ جهدي لكي اجد عليه عثرة واحدة لآخذه بها ، فلم اجد عليه شيئاً ، وليس معنى ذلك انه بريء من عداوته لنا ، ولكن الذي يبدو لي ان الخبيث حازم ومحتاط لنفسه ، ولكن رغم ذلك سوف ادبر له مكيدة تحط من كرامته بين قومه ..

– أنا انصحك ان تترك الرجل وشأنه ، وان لا تحاول اهانته بدون بينة تأخذه بها لانني واثق بأنه شخص غيور على كرامة نفسه ..

– أنت بلا شك مخدوع بهذا المتكبر المغرور ..

– الايام بيننا .. ولكنني اذكرك بحكمة العربي القائل : اياك وصولة الكريم اذا اهين وبطر اللئيم اذا شبع ..

– اتظن ان صاحبك كريم .. بل انه لئيم ولا يصلح له الا الاهانة .. ولذلك

سوف لا ادخر وسعاً لاهانته ولو بطريقة غير مباشرة ..

ـ ما هي الطريقة التي تريد ان تتخذها لاهانته ..؟

ـ سوف ازوره في منزله الآن وسيكون مجيئي له فجـــأة ، وعندما يراني زائراً لهسوف يحاول ان يبذل كل مالديه من الجهد لاكرامي والحفاوة بي كضيف زائر .. وعندئذ سوف ارفض واقسم له بأنني لن اتناول من بيته شيئاً الا اذا نفذت رغبتي ، ثم اجعل طلبي مبهما لا اخبره عنه ،وفي هذه الحالة سوف يسألني عن كنه الطلب وعندها سوف اقول له انني كما تعلم بعيد عن اهـــلي وشعرت هذه الساعة بقلق ممـــا جعلني احاول ان اسلي نفسي وانسيها همومها ، فرحت اسأل افراد رجالي واحداً واحداً عمن يحسن ان يلحن على الربابة فلم اجــد فيهم احداً فسألتهم هل يعرفون احدا من اهل البلاد يحسن التلحين على الربابة فأخبرت بأنك تجيد ذلك ، ولذلك قصدتك راجيــاً ان تلبي طلبي وتساعدني على تبديد همومي ، ثم مضى وقال وهو عندما يلبي طلبي ويغني لي على ربابته اكون وقتها تمكنت من اهانته والحط من كرامته بين مجتمعه بدون ان يشعر بذلك ..

ـ اعتقد ان الرجل فوق ما تتصوره واذكى من ان تفوت عليه هـــذه الخدعة .. ومن رأيي ان تترك سبيله ، ومضى سويلم الى ان قال : انا اؤكد لك بأنه وان كان يحسن التلحين والغناء على الربابة من اجل ان يسلي نفســه او يسلي بعض زائريه من اصدقائــه الذين من منزلته وما دون، ولكنه لا يمكن ان يغني بالربابة لشخص اعلى منه منزلة من امثالك ..

ـ دع القضية سراً وسوف ترى فيما بعد نتائج الامور .. ثم واصل سبهان حديثه وقال : ارى انه من الافضل ان نباغته الآن ونذهب اليه في هذه الساعة ..

ـ اذا كنت عازماً فما عليك الا ان تتوكل على الله ..

أراد ان يهين فأهين .

كانت الساعة التي صمم بها الامير على زيارته الملغومة ساعة قيلولة .. وكان الفصل صيفاً وكانت العادة المألوفة عند أهالي نجد وخاصة اهالي الشمال ان ساعة القيلولة التي تقع قبيل صلاة الظهر بساعة .. هذه الفترة بالذات بالنسبة لاهل البلاد اشبه ماتكون بمنتصف الليل خاصة فيذلك العهد .. فيكون السكون مخيماً على البلاد ولن تجد في الاسواق احداً ، فكلهم مخلدون الى الراحة والسبات العميق.

في هذه اللحظة بالذات ذهب سبهان وحاشيته الى منزل عناد وتنفيذاً لخطته الملغومة ، عندما وصل باب الرجل تقدم احد الحاشية وطرق الباب (بركزة) سيفه بشدة حسب القاعدة المألوفة في حالة كهذه كنذير ، يشير الى ان الزائر ليس عادياً ، فأسرع احد الصبيان وفتح الباب ..

و ان رأى الصبي الوالي وحاشيته حتى عاد مذهولاً ليخبر سيد المنزل النائم .. فجاء الرجل يسير بخطى وئيدة وبكل هدوء ورباطة جأش .. فبادر الوالي بالتحية فرد عليها بمثلها ، وهو في موقفه عند مدخل الباب دون ان يأذن للوالي بالدخول .. وكانت هذه المقابلة الجافة اول نذير لسبهان بفشل خطته .. ولكنه تابع تنفيذ مكيدته وقال :

ـ لقد اصابني قلق وصدمة نفسية في هذه اللحظة ولم أجد بداً من ان اذهب الى أي مكان لأسلي نفسي وازيل ما ألمّ بي من قلق مزعج فرأيت ان خير من اذهب اليه هو جنابك و ..

فرد عليه عناد بقوله وهو يبتسم ابتسامة تعبر عما في نفس صاحبها من وقار واعتزاز بالنفس :

ـ ان هذه الزيارة ياطويل العمر زيارة العدو[1] لعدوه ، ثم أتبع هذه الكلمة بعد صمت قليل وقال : وعلى اية حال فانني اعتبر هذه الزيارة فرصة ميمونة فيما اذا لم يكن لها ما وراءها من بواعث في النفس واسرار خفية مخالفة للحقيقة التي اشرتم اليها في ظاهر الامر ..

ـ لم يكن هناك حافز ورغبة أو رهبة تضطرني لأن احدثك حديثاً يخالف الحقيقة التي صارحتك بها ..

ـ ان قدومك عليّ في هذه الساعة الحرجة وبدون سابق علم يجعلني اشك كثيراً بان هذه الزيارة تم عن باطن خفي .. ثم مضى وقال : اسمح لي ان اقول لك بأنني لا يمكن ان آذن لك بدخول منزلي حتى تثبت لي ان مجيئك له ليس ظاهره يخالف باطنه ..

والدليل الثابت الذي يقنعني بهذا الشأن هو ان تعطيني عهد الشرف بانك سوف تزورني بعد الغد لتناول وجبة العشاء في منزلي هذا حتى يكون لديّ من الوقت الكافي ما يجعلني استطيع القيام بواجبي نحوك بصفتك تمثل حاكم بلادنا هنا .. وواجبك الرسمي يفرض عليّ ان لا تكون زيارتك لمنزلي زيارة ارتجالية كهذه ، بل يتحتم عليّ ان اقدم لك الضيافة التي تليق بمنزلتك كنائب لحاكمنا .. كما ينبغي منك ان تنظر لوضعي الراهن بين قومي الذين سوف يعيبونني وسوف تصاب كرامتي عندهم بشلل عندما يعلمون انك زرتني ولم اقم بواجبك ..

ـ ما دام قبولي دعوتك لتناول وجبة العشاء ، يقنعك بأنه ليس لدي باطن يخالف ظاهري ، فأنني من الآن موافق على قبول دعوتك بعد الغد كما تريد ..

(١) هذا مثل شعبي يقال في مناسبة كهذه .. وهو صالح ان يقال في حالة الجد وفي حالة المزح .. ولكنه اكثر ما يستعمل في المزح وربما كان الاصل فيه الجد كما هو الامر الواقع الآن.

ـ انني اعتبر الوعد منك عهداً ؟..

ـ طبعاً ..

ـ اذن تفضل ..

ـ دخل الوالي او الامير حسب الاصطلاح المعمول به هناك وجلس عناد عن يمينه بعدما امر شخصاًمن اقاربه بتهيئة القهوة ..

وبعدما احتسى الامير وحاشيته اكواباً من القهوة عند ذلك استأذن فأذن له مضيفهالذي راحيقدمه حتى الباب الخارجي، وعندما تبادلا التحية الوداعية، ذكره عناد بالوعد من باب التأكيد ، فأعطاه الامير اشارة تتضمن زيادة تأكيده بما وعده به ، خرجالامير من منزل عناد وهو كاسف البال يسحب خطاه شاعراً بالهزيمة ، ولم يفكر ان يباحثسويلما قطعياً في الموضوع لئلا يشمت به ..وكانت مصيبته الكبرىانه سوف يأتي بعد الغد الى منزل هذا العدو اللدود وهو كاره..

ظل الامير ذلك اليوم عابس الوجه مقطب الحاجبين .. وعندما جاء مساء اليوم الثاني ذهب الى بيت عناد لينفذ وعده المشؤوم .. وما ان وصل هناكحتى وجد بعض اعيان البلاد والبعض الآخر جاء فيما بعد وظل المدعوون يتوافـدون حتى انه لم يبق من رجال اهل البلاد الذين يشار اليهم بالبنان احد الا وحضر.. وبعد ما تكامل المدعوون نهض المضيف امام الامير مشيراً بأن يتفضل الى المائدة فقام الامير وحاشيته والمدعوون على شرفه ، حتى اذا وصل المائدة وجـد جزوواً وعدداً من كباش الضان فكانت المائدة بمنتهى السخاء .. وبعد ان انتهى من عشائه عاد الى المجلس فتناول فنجاناً من القهوة ثم استأذن من مضيفه،وراح وفي نفسه من الحقد اضعاف ما كان فيها سابقاً ..

ولما كان اهل الجوف من نوع القوم الذين يسأمون حياة الاستقرار والهدوء،

ولا يطيب لهم العيش الا في ظل الثورات والتمرد .. فقد كان الوقت مواتياً لهم آنذاك .. بوجود قوتين متنافستين وهما ابن رشيد من من الجهة الشرقيـة وابن شعلان من الجهة الغربية وكان النزاع بين الرئيسين قائماً على قدم وساق ، ومن مصلحة اهل الجوف ان يتخذوا من هذا النزاع وسيلة للمساومة بين المتخاصمين ، وعند اية مناسبة يختلقونها ، يجتمع نفر منهم ويتفقون على نقض العهـد الذي في ذمتهم للحاكم الحالي .. ومن ثم يبعثون وفداً منهم موكلا من قبلهم يعلن عن لسانهم ولاءه للحاكم المناوىء لحاكمهم الحالي .

وفي تلك الايام بلغ سبهان من مصدر ثقة بأن اهل الجوف اوفدوا رجالاً من اعيانهم برسالة الى النوري بن شعلان تتضمن اجماع الكثير منهم على خلع العهـد الذي بذمتهم لابن رشيد ، واخذ عهد لابن شعلان .. ولم يستغرب سبهان هـذا النبأ كما لم يستبعده ..

بعد ان خدعه المنافقون عرف المخلصين !

ولم يكن لدى سبهان من الوسائل التي ينتحلها .الا انه بعث رجاله ليستدعوا له اعيان اهل البلاد، فحضر جميع الاغيان البارزين الا عنادا، تخلف عن الحضور ، فراح سبهان يصارحهم عن حقيقـة النبأ الذي بلغه ، فانكروا جميعهـم الخبر وأكـدوا بأنهم لا زالوا متمسكين له بالعهد ومعترفين له بالولاء والاخلاص .. فطلب منهم بان يأخذ منهم عهداً جديداً لكي يزداد اطمئنانا .. فلبى جميعهم الطلب بدون ان يبدو من أي واحد منهم تردد ، وعندها اخذ سبهان عهداً من كل فرد منهم ..

وبعد هذا العهد الجديد اطمـأن على نفسه ، وشكر المعاهـدين بحضورهم وبغيابهم وفي الوقت نفسه ازداد غضبه على عناد ، لانه لم يحضر مع اعيان البلاد الذين عاهدوه واثبتوا ولاءهم واخلاصهم ، فظل يشتمه ، وينال من شرفـه ،

ويتهمه بالخيانة،الامر الذي جعله يرى ان حجته قامت عليه وان الفرصة سنحت له لينتقم منه .. فذهب ونادى «سويلما» وعندما حضر قال له:

– ها هو صاحبك الخبيث العدو المبين حضر رفاقه المخلصون وجدد واالعهد ونفوا التهمة عن نفوسهم الا هو لم يحضر لانه يعرف نفسه بأنه مجرم خائن .

فقال سويلم :

– لا يحق لنا ان نحكم عليه بالخيانة قبل ان تبعث له الآن رسولا يستدعيه ليحضر عندك .. وفي حالة تلبيته لطلبك ، لك ان تستفسر منه عن اسباب تأخره ، فهو اما ان يحضر وعندئذ يمكنك ان تفهم شيئاً عن وجهة نظره بعدم حضوره ،او انه يمتنع عن المجيء وعند ذلك تقيم عليه الحجة بالادلة القاطعة ...

– اذن سوف نبعث له الان رسولا يستدعيه وننظر ماذا تكون النتيجة ؟ .

ارسل سبهان رسولا يستدعي عنادا، وما ان جاءه الرسول حتى حضر فوراً، وبعد تبادل التحية بينه وبين سبهان وجه اليه الاخير السؤال التالي :

– ما هي الاسباب التي اخرتك عن المجيء مع الجماعة عندما حضروا عندنا.. فاجابه عناد بهذه العبارة نصاً حرفياً :

– من حضر ما غاب[1]..

---

١ هذه العبارة التي جاءت جواباً من عناد لسبهان نقلتها حرفياً من رسالة وردتني بتاريخ ١٣٧٥/٩/٨ هـ من راوي القصة المرحوم سويلم الشملان وذلك أنني حررت له رسالة بتاريخ ١٣٧٥/٧/٢٤هـ طالباً منه مزيداً من الايضاح عن تفاصيل القصة والتأكد عن اسم الشخص اعني عناداً لانني رويت عنه هذه الحادثة من مدة لا تقل عن خمس سنين من تاريخ رسالتي ..وقدفرقت بيننا الايام ولم أر سويلما بعد تلك المدة الا قبل ان يتوفاه الله بشهر واحد .. واما معنى الجملة الشعبية التي تلفظ بها عناد بقوله: من حضر ما غاب معناها انني حضرت الان بين يديك وكأنني لم اغب فهات ما عندك ..

– لقد طلبت من أهل البلاد ان يعطوني عهداً جديداً لأطمئن اليه وذلك انه بلغني خبر يفيد انهم نقضوا المعاهدات السابقة ، ولكني احتطت للامر فاخذت من كل فرد من اعيانهم عهداً .. ثم مضى الامير بحديثه الى ان قال : وبصفتك من افذاذ اهل هذه البلاد البارزين فانني أرغب بأن تعطيني عهداً على الطريقه التي اخذت بها عهداً من رفاقك ..

فقال عناد :

– ما هي صفة العهد الذي عاهدك به الجماعه ؟ ..

– ليس هذا بخاف عليك ..

– أريد ان افهم كنهه لفظاً ومعنى ..

– معناه ولفظه كالعهود المتبعة المألوفه، وهو انك تضع يمينك بيميني وتقول: اعاهدك الله بانني صديق صديقك وعدو عدوك. وتحلف يمينا بالله بأنك لن تنكث هذا العهد وينتهي الامر بعد ذلك ..

– اود ان تعفيني من هذا العهد ولا سيما ما دام ان اعيان قومي كلهم عاهدوك فما انا الا واحد منهم ولا سبيل لي الا سبيلهم ..

– لا بل يجب ان تعاهدني كما عاهدني قومك ، والا فسوف تكون موضع ريبة عندنا ..

– سوف اعاهدك على انني واحد من هؤلاء القوم الذين عاهدوك لا اخرج عن رأيهم ، فان وفوا بعهدهم وصدقوا فانني واحد منهم وان نكثوا عهدهم فانني منهم ايضاً ..

ـ لا لا تلف وتدور اريد منك ان تضع يمينك بيميني وتماهدني بنفس العبارات التي تلفظ بها رفاقك حرفياً ..

اذا كنت مصراً على ذلك فانني سوف اعاهدك الله بالعبارات التالية :

ـ اعاهدك الله على ما انطوت عليه ضمائر جماعتي وما خبأته نفوسهم ، لا على ما نطقت به السنتهم .. ثم مضى وقال : وثق يا سبهان بأنني لو علمت بأنه باستطاعتي ان افي لك بالعهد الذي نطقت به السن قومي فلن اتأخر .. ولو اعتقد ان فيهم واحداً يفي بعهده لعاهدتك. ولكنني كشخص من اعيان اهل هذه البلاد لا استطيع ان اشذ عن الرأي العام الذي يجمع عليه خاصة أهل البلاد وعامتهم.

ـ اذن في نفوس القوم خفية خلاف البينة التي عاهدوني عليها ..

ـ اتمنى ان لا يكون ذلك ولكن هذا هو واقع امرهم ...

اذهب الى قومك . والحقيقة انني عرفت الآن انك انبلهم خلقاً واصدقهم حديثا واوفاهم عهدا واكرمهم نفسا ..

وما ان ذهب عناد الى قومه حتى بات لدى سبهان من اليقين القاطع بأن لدى أهل الجوف من الباطن خلاف ما عاهدوه عليه وكانت النتيجة انهم نقضوا المعاهدات الجديدة التي اخذها عليهم سبهان، وذهبوا يعاهدون النوري بن شعلان.

اما سبهان فقد ظل محاصرا بقصر امارته ذلك الحصار الذي ذكرته في سفرنا هذا (ص ٧٧ الى ٩٢ ج ٢)

افتدى قومه بنفسه !!

- ٢٢ -

يفاجأ المرء بازمات قاسية ، وامتحانات عنيفة لم يحسب لها حسابا، وهو بحالة كهذه اذا لم يواجه تلك الازمات وهـذه المحن بعزيمة ماضية وارادة فولاذية ، وشجاعة خارقة . فانه سوف يذهب ضحية رخيصة .

وشجعان القلوب كثيرون ، واكثر منهم شجعان المهرجانات والتهريج ، ولكن شجعان العقول وشجعان الازمات ، وأبطال المفاجـآت قليلون ، وأقل منهم شجعان الامتحانات ، وأعني بهذا الاسم اولئك النفر الذين يتحملون على عاتقهم عبء المسؤولية ، وذلك عندما تكون المسؤولية مشتركة ، وموزعة على عدد كثير من الرجال ، فما أكثر الذين يتهربون عن المسؤولية في حالة كهـذه ، محالاً كل واحد منهم ان يضع المسؤولية على عاتق غيره ، وما اقل بل ما اندر الرجال الذين يتحدون التهديدات ، التي قد تؤدي الى الموت ، آخذين المسؤولية كلها على عاتقهم ، كما فعل بعض رجالات العرب في عهدنا القريب عندمـا وقف يتحدى السلطة الجبارة العنيفه قائلا :

انا وحدي المسؤول ..

معيداً الى اذهاننا موقف بطل قصتنا هذه الواقعة في عام ١٣١٠ هـ والـتي اوافي بها القارىء كما نقلتها من راوي القصة وهو المرحوم سلمان بن[1] رشدان احد

١ ورد اسم سلمان بن رشدان اكثر من مرة في هذا الكتاب.

شهود العيان الذي نقلها لنا على الوجه التالي فقال :

عندما كان الامير محمد العبد الله الرشيد مخيماً في جنوب شبه الجزيرةالعربية، بلغهخبر يفيد بوجود شخص مقتول في وسط معسكره، وعندما اجرى التحقيق عن جنسية هذا المقتول تبين انه من قبائل المنتفق ، اي ليس من قبيلته شمر التي هي قبيلة الامير ، اذ لو كان منها لهان الامر عليه ، اما ان يقتل شخص كهـذا الذي يعتبر ضيفاً للامير في وسط معسكره فهذا معناه استهجان بحرمة الامـير واهانة موجهة له شخصياً .. ولم يكن للامير من بد ان يبعث رجـالا يتحرون الحقيقة ويبحثون عن القاتل بطريقة سرية وعلانية ، ولكن بالرغم من جهوده المبذولة ما استطـاع الامير ان يصل الى أية نتيجة ، اللهم الا نتيجـة واحدة ، ضئيلة لا تفي بالغرض المطلوب ، وهي وجود القتيل في وسط المعسكر الخاص بالجماعة المسمون باهالي لبدة [1] ، وهؤلاء وان كانوا حضراً ولكنهم متعصبون فيما بينهم تعصباً لا يقل عن تعصب رجال القبيلة لقبيلتهم ، كما انهم في الوقت ذاته يشكلون القسمالكبير من جنود الاميرالذين يعتمدعليهم في الحروب، وفي المهات التي يسندهاالى الرجال البارزين ذوي الكفاءة من أهالي هذا الحي..

اتخذ الامير من وجود جثمان القتيل في وسط خيام هؤلاء القوم دليلا يحتج به عليهم ، وانما المشكلة انهم رجال كثيرو العدد ، ولا يمكن ان يتآمروا كلهم على قتله ، فرأى الامير ان خير الوسائل التي يلتمسها بهذا الشان هي ان يجمع كافة الشخصيات البارزة من اعيانهم وراح يحقق معهم في موضوع القتيل مهدداً اياهم تارة باشد العقاب ومغرياً تارة اخرى بالمال لمن يخبره محاولا بهذه وتلك ان يجـد فيهم من يدله على قاتل ضيفه ، ولما لم يجـد فيهم من يفيده ، تركهم وشأنهم ، واذن لهم بالخروج من ناديه، فبدل خطته الاولى بخطة ثانية، وهيانهراحواجتمع بنفرادهم واحداً بعد واحد، وراحيحقق هو بنفسه مع كل فرد منهم على طريقته

---

١ لبدة من اكبر الاحياء في مدينة حائل.

الاولى أي الاغراء ، فيما اذا كان ذلك يفيد ، والا فالتهديد والوعيد ، وعندما لم يصل الى نتيجة اشتد غضبه فقرر هذه المرة ان يجمعهم ثانية ويتحدث معهم بلغة صارمة تختلف عن ذي قبل ، وعندما اجتمعوا وجه لهم الحديث التالي :

تعلمون ان القتيل لو كان أخي لكان بإمكاني ان اغض طرفي عن متابعة القضية ، ولكنه ضيفي ، فكيف اتهاون بامره ، فقاطعه احد كبارهم وهو حمود الزيد فقال : [١]

- ان ضيفك ضيف لنا ونحن مهتمون بامره كاهتمامك به ..

فرد عليه الامير :

- انتم مسؤولون عنه امامي ، وانا مسؤول عنه امام اهله ...

فأصبح الحوار والجدل بين الامير وبين حمود الذي يتكلم بلسان رفاقه الموجودين والغائبين فقال :

- اذا كان هناك مسؤولية فانها ستكون مشاعة على عشرات الالوف من قومك .. لامختصرة علينا وحدنا ..

كانت هذة الكلمة مفحمة للامير ولذلك قال : بعدما اشتد غضبه :

- بل ان المسؤلية تقع على عاتقكم انتم وحدكم لان الرجل قتل عندكم وفي وسط مخيمكم والادلة كلها تشير الى ان قاتله واحد من رفاقكم ، ثم مضى الامير

---

(١) حمود من اعيان ساكني حائل ، وهو شجاع في الحروب كما كان شجاعاً في رأيه . وقد تولى امارة بريدة نائباً عن محمدالعبدالله الرشيد،ويكون والد المرحوم الشيخ عبدالعزيزبن زيد الذى كان سفيراً لحكومته السعودية في ممثليتها في سورية ولبنان وتوفي في دمشق عام ١٣٧٩هـ ١٩٥٨م كما يكون الجد الثالث لسميه حمود الوزير المفوض في وزارة الخارجية السعودية حالياً . وهو ايضا اخو جد سفير المملكة السعودية في ليبيا حالياً عبدالمحسن الزيد .

ـ انني اعتبر الوعد منك عهداً ؟..

ـ طبعاً ..

ـ اذن تفضل ..

ـ دخل الوالي او الامير -حسب الاصطلاح المعمول به هناك وجلس عناد عن يمينه بعدما امر شخصاًمن اقاربه بتهيئة القهوة ..

وبعدما احتسى الامير وحاشيته اكواباً من القهوة عند ذلك استأذن فأذن له مضيفهالذي راحيقدمه حتى الباب الخارجي، وعندما تبادلا التحية الوداعية، ذكره عناد بالوعد من باب التأكيد ، فأعطاه الامير اشارة تتضمن زيادة تأكيده بما وعده به ، خرجالامير من منزل عناد وهو كاسف البال يسحب خطاه شاعراً بالهزيمة ، ولم يفكر ان يباحث سويلما قطعياً في الموضوع لئلا يشمت به ..وكانت مصيبته الكبرىانه سوف يأتي بعد الغد الى منزل هذا العدو اللدود وهو كاره..

ظل الامير ذلك اليوم عابس الوجه مقطب الحاجبين .. وعندما جاء مساء اليوم الثاني ذهب الى بيت عناد لينفذ وعده المشؤوم .. وما ان وصل هناكحتى وجد بعض اعيان البلاد والبعض الآخر جاء فيما بعد وظل المدعوون يتوافـدون حتى انه لم يبق من رجال اهل البلاد الذين يشار اليهم بالبنان احد الا وحضر.. وبعد ما تكامل المدعوون نهض المضيف امام الامير مشيراً بأن يتفضل الى المائدة فقام الامير وحاشيته والمدعوون على شرفه ، حتى اذا وصل المائدة وجـــد جزوواً وعدداً من كباش الضان فكانت المائدة بمنتهى السخاء .. وبعد ان انتهى من عشائه عاد الى المجلس فتناول فنجاناً من القهوة ثم استأذن من مضيفه،وراح وفي نفسه من الحقد اضعاف ما كان فيها سابقاً ..

ولما كان اهل الجوف من نوع القوم الذين يسأمون حياة الاستقرار والهدوء،

ولا يطيب لهم العيش الا في ظل الثورات والتمرد .. فقد كان الوقت مواتياً لهم آنذاك .. بوجود قوتين متنافستين وهما ابن رشيد من من الجهة الشرقيـة وابن شعلان من الجهة الغربية وكان النزاع بين الرئيسين قائماً على قدم وساق ، ومن مصلحة اهل الجوف ان يتخذوا من هذا النزاع وسيلة للمساومة بين المتخاصمين ، وعند اية مناسبة يختلقونها ، يجتمع نفر منهم ويتفقون على نقض العهـد الذي في ذمتهم للحاكم الحالي .. ومن ثم يبعثون وفداً منهم موكلا من قبلهم يعلن عن لسانهم ولاءه للحاكم المناوىء لحاكمهم الحالي .

وفي تلك الايام بلغ سبهان من مصدر ثقة بأن اهل الجوف اوفدوا رجالاً من اعيانهم برسالة الى النوري بن شعلان تتضمن اجماع الكثير منهم على خلع العهـد الذي بذمتهم لابن رشيد ، واخذ عهد لابن شعلان .. ولم يستغرب سبهان هـذا النبأ كما لم يستبعده ..

بعد ان خدعه المنافقون عرف المخلصين !

ولم يكن لدى سبهان من الوسائل التي ينتحلها الا انه بعث رجاله ليستدعوا له اعيان اهل البلاد، فحضر جميع الاعيان البارزين الا عنادا، تخلف عن الحضور ، فراح سبهان يصارحهم عن حقيقـة النبأ الذي بلغه ، فانكروا جميعهـم الخبر وأكـدوا بأنهم لا زالوا متمسكين له بالعهد ومعترفين له بالولاء والاخلاص .. فطلب منهم بان يأخذ منهم عهداً جديداً لكي يزداد اطمئنانا .. فلبى جميعهم الطلب بدون ان يبدو من أي واحد منهم تردد ، وعندها اخذ سبهان عهداً من كل فرد منهم ..

وبعد هذا العهد الجديد اطمـأن على نفسه ، وشكر المعاهـدين بحضورهم وبغيابهم وفي الوقت نفسه ازداد غضبه على عناد ، لانه لم يحضر مع اعيان البلاد الذين عاهدوه واثبتوا ولاءهم واخلاصهم ، فظل يشتمه ، وينال من شرفـه ،

فليكن عقابي القتل

- ٢٣ -

أصعب شيء يمر في حياة الانسان ، عندما يعيش في مجتمع ، بينه وبين أهله من حيث اليقظه والوعي والنمو الفكري ، كما بين الطفل الذي في الخامسة من عمره والكهل الذي تجاوز سن الاربعين ، وكما ان التفاهم بين من يحمل عقلية العصر الحجري وبين من يحمله عقلية القرن العشرين مفقود ، بل معدوم ..

وهذا ما يقع دائماً وأبداً في كل العصور وفي كل المجتمعات . ولا أعتقد ان ثمة امة من الامم الا مرت بهذه التجربة ، في حياتها البدائية .. وما لقيه أي مواطن من الاستهجان وتسفيه الرأي عندما يطالب في تعليم المرأة وتحرير الانسان من استعباد أخيه الانسان في مجتمع لا زال في دوره البدائي ، لقيه صاحب هذه الترجمة ، عندما رفض ان يساير مجتمعه الذي كان يعيش آنذاك على الغزو والنهب والسلب ..

وبينما كان رجال مجتمعه يرون ان معارضته لهم في سلوكهم هـذا واعلانه عدم مسايرتهم بكل صراحة وعنف ، ضرباً من الجنون ، بينما يرى الفتى ان رجال مجتمعه يعيشون حياة حريا بها ان يقال انها الى حياة الوحوش التي يفترس قويها ضعيفها اقرب منها الى حياة الانسان ..

وهكذا كان الامر واقعياً بالنسبة لبطل قصتنا هذه المرحوم سعد القنب[1]

---

(١) سعد من ساكني حائل

وعلينا اولا ان نشير الى ترجمة حياة الفتى ، ونذكر الاسباب والمؤثرات التي ايقظت وعيه وجعلته شاذاً بين مجتمعه .

ولد سعد القنب في مدينة حائل في عام ١٣٠٨ هـ ودرس القرآن ، ثم سافر الى تركيا عام ١٣٢٤ هـ بصحبة أحد اصهار ابن رشيد وهو سبهان العلي الذي تبنى تربية القنب منذ ان كان طفلا يتيما فكأنه ابنه المدلل، وقد ظل في استانبول حتى عام ١٣٢٩ وتعلم اللغة التركية كواحد من ابنائها ، وصادف بقاؤه في استانبول الظرف الذي التهب فيه وعي الشباب التركي ضد حكم السلطان عبد الحميد وشاهد بعيني رأسه ثورة الجماهير عندما طوحوا بعرش السلطان عبد الحميد وامتزج مع كثير من الشباب التركي الناضج الوعي ، حتى تبلورت افكاره ونضج وعيه بصورة لا تختلف عن وعي اي شاب ثائر من الشباب التركي الذين يطالبون بمجلس أمة و والخ ..

وهكذا جاء الفتى من استانبول الى حائل حاملا هذه الافكار ومؤمنا بها ايماناً لايتزحزح ، في الحين الذي لايوجد في بلاده من يعرف معنى تلك الافكار وحتى لو قدر المستحيل ووجد من يحمل او يفهم المبادىء التي يفهمها الفتى ويؤمن بها فانه لم يوجد ولن يوجد ذلك الرجل الذي لديه من الشجاعة بل والتطرف ما لدى صاحب الترجمة ..

من هنا يكون التناقض .

وفي الظرف الذي كان فيه الفتى متحمساً لمبادئه وبالغاً ايمانه بها درجة من التهور والاسراف جعلته لا ان يكون ايمانه محدوداً على نفسه فحسب ، بل يحاول ان ينشر افكاره ومبادئه بين مواطنيه ، حتى ولو أدى الأمر الى ان يدفع حياته ثمناً لما يؤمن به .

في هذا الظرف بالذات جاءه رسول امير البلاد يبلغه امر حاكمه بأن يتأهب

للغزو ليشارك أهل بلاده بالمهمة ، ومن هنا يبدو التناقض سافراً بين فتى يحمل فكرة جيــل العصر الحديث ويحاول ان تتحد امته العربية ، وتسود الحرية والمساواة كافة امة العرب ويعيش ناطقــوا الضاد من المحيط الى الخليج في أمن ورضا واخوة ووئام .. وبين تفكير رسول الامير الذي لا يمكن ان يفقه هــذه المعاني ، ولا يؤمن الا بما يؤمن به رجال مجتمعه وهو السمع والطاعة العمياء لتنفيذ ارادة الامير التي ترمي الى استعداد اهل البلاد عن بكرة ابيهم ، ما عدا الشيوخ والاطفال .. واما البقية فكلهم يجب ان يذهبوا ليغزوا احدى القبائل وينهبوا ما امكنهم نهبه من ابل وغنم هذه القبيلة التي لاتذعن لسلطان الامير ، اوليحاربوا ذلك الزعيم او الامير الذي ينافس اميرهم السيادة ، وفي الوقت ذاته تقوم تلك القبائل او ذاك الزعيم بغزوة مماثلة على قبيلة ورجال وبلاد الامير الغازي وهكذا دواليك ..

وكيف يكون التفاهم بين عقلية وتفكير الفتى الثائر وبــين تفكير عقلية رسول الامير الذي اشبه ما يكون بمرآة لمجتمعه من أهل البلاد واميرهم وقبيلتهم بل ولسان حال رجال ساكني نجد جميعاً آنذاك ..

وها هــو الرسول يطرق باب منزل سعد القنب الكائن في الحي الغربي من مدينة حائل وعندما خرج الفتى وجد جندي الامارة يحمل ورقــة بيضاء تضم اسماء الطليعة الراقية من الغزاة وكان الفتى في رأس قائمة الطبقة الاولى الممتازة ، وذلك لان الغزاة مرتبون على حسب منازلهم الى درجات .. فالدرجة الاولى الممتازة يسمى صاحبها بالعرف المتبع (ملط) [1] وهذه لاتحصل الا للفارس او للرجل المحترم ، واما الثانية فيدعي المرء صاحب شداد و رديفه ، والثالثة الرديف ، ولابد

---

(١) الملط معناه انه منفرد براحلته لايشاركه بها احــد .. وصاحب الشداد الذي له رديف هو الذي له شريك في الراحلة ولكنه مقدم على شريكه . الرديف هو الذي يركب خلف صاحب الشداد وهو شريــك لصاحب الشداد ولكنه لا يركب المكان الامامي الا بأمر من الاول . والراحلة من الامارة .

والحالة هذه للرسول ان يزف للفتى البشرى والتهنئة على ان المسؤولين اعتبروه من رجال الطبقة الاولى واصبح ملطا ومثل هذه المنزلة لا تحصل بسهولة لفتى في هذا السن ، وهذا مما جعل الجندي حامل القائمة يقول للفتى بذهول انساه التحية :

ـ أهنئك وابشرك .

ـ بماذا تبشرني ؟..

ـ هاهو اسمك ملط في جانب اسم فلان وفلان .. ثم يربت الرسول على كتفي الفتى مهنئاً على حوزته وسام الشرف والتقدير الذي لا يناله الا الطليعة الممتازة من الغزاة ولكن الفتي الكافر بهذه الشكليات، اجاب الرسول بهدوء قائلاً :

ـ اذهب الى من ارسلك وقل له ان فلانا ليس لديه استعداد للغزوة ، ولن يكون لديه في المستقبل لا القريب ولا البعيد ..

ـ أأنت مجنون ما هذا الحديث الذي لا يصدر الا عن امرىء اصيب عقله ؟

ـ قلت لك ارجع الى من أرسلك وانقل له الحديث الذي ابلغتك اياه ولا تزد الحديث معي ..

ـ انا لا انقل كلاماً كحديثك هذا الذي لا يصدر الا من رجل مسه الجنون في عقله ..

ـ أنت رسول وما عليك الا ان تبلغ من أرسلك حديثي كما بلغتني أوامره .

ـ انت بين امرين : اما انك مصاب بشلل بعقلك ، او انك جلبت معك من الشيء الذي يعمل في بلاد الكفار والذي لا يشربه الا الكفار (يعني الخمرة) الذي يقولون عنه بأنه يجعل الانسان يهذي كهذيانك هذا ..

ـ انالست مجنوناً ولا شارب خمرة وانما المجنون والمعتوه انت وامثالك الذين تساقون كالبهائم مسلوبي الحرية ولا تعرفون معنى لقيمتكم الانسانية .

ـ ما هي الحرية يا أهبل ؟ .. وهل هناك حرية اشرف من امتثال والي أمرنا الامير اطال الله عمره ونصره على اعدائه ، الم يقل الله جل شأنه بكتابه العزيز : اطيعوا الله والرسول وأولي الامر منكم ؟..

ـ اعتقد ان الحديث معك ضرب من العبث ، ولن أجيبك بعد الآن على حديثك بكلمة واحدة قطعياً وما عليك الا ان تبلغ سيدك حديثي وانا المسؤول عن كل كلمة تحدثت بها .. وأزيدك تأكيداً وتكراراً بأنني كافر بأوامر سيدك ولن امتثل لها وهب انه سيعاقبني بالموت ثم ماذا فليكن عقابي القتل في سبيل ما اعتقد انه صواب وحق ؟ ..

قال الفتى هذه الكلمات ثم ذهب مدبراً وفي الوقت ذاته ادبر من عنده رسول لامير ذاهباً الى سيده وعندما وصل الى مولاه قال :

ـ انني ذهبت الى فلان لاخبره بأن يستعد ويتهيأ للغزو ، ولكنني وجدته يتكلم بحديث كالهذيان ..

كان الامير وقتها صبياً لم يبلغ سن الرشد بعد ، وكان الوصي زامل بن سالم السبهان[1] وهو من اخوال الامير ، ولم يكن الامير الا رمزاً فقط ، اما الجهاز المحرك فهو زامل .. فهذا هو قطب الحركة المهيمن على مرافق الامارة ، الامر الذي جعل الرسول يذهب الى زامل رأساً ، ويخبره بالخلل الذي اصاب الفتى ، فسأل الوصي رسوله عن معني الحديث الذي سمعه الفتى فقال :

---

١ زامل قتل غدراً بيد عبد الكريم بن خشمان بايعاز من ابن عم زامل سعود بن صالح السبهان وكان مصرعه في عام ١٣٣٣هـ كما ان سعوداً كان مصيره كمصير سلفه على يد مشل بن فروان في عام ١٣٣٧هـ .

ـ ان الادب يمنعني ان انقل لحضرتكم حديثاً كحديث ذلك الارعن المجنون، لانه لم يكن عندي عليه شهود يسمعون كلامه ..

فقال الوصي :

ـ اذهب اليه وأمره بأن يأتي الينا .
فأجابه هذا :

ـ أمرك يا طويل العمر .

ذهب الرسول وأخبر الفتى بطلب الوصي فأجاب قائلاً :

ـ اذهب وسوف آتي الآن ..

وعلى الفور ذهب الفتى الى الوصي وحالما وصل اليه استدعى رسوله وقال :

ـ حدثنا بالكلام الذي قاله لك سعد ، فقال :

ـ اخشى ان ينكره عندما وصل اليك لان الكلام الذي اسمعني اياه لا يستطيع ان يثبته امامك وجهاً لوجه .

ـ وما ان سمع الفتى هذه العبارات حتى قفز واتجه نحو الرسول قائلا :

ـ عليك ان تتحدث بكل ما دار بيني وبينك من حديث ولك علي ان لا انكر كلمة واحدة مما قلته لك ، بل سوف تسمع مني الآن ما هو اكثر مما سمعته مني بمفردك لانني مؤمن بما اقول ..

وعندما سمع الرسول كلام الفتى بدأ ينقل الكلام الذي سمعه من الفتى بحذافيره، وكانت كل كلمة فيها شيء من القسوة والشابيه عن الكلام المألوف الذي

في حديثه الى ان قال :

– وانني اعطيكم مهلة اقصاها غداً مساء فان اخبرتموني بالقاتل فبها ، والا اعاهدكم الله بأنني سوف اشدخ رؤوسكم جميعاً ..

فقال حمود :.

– ولماذا لا نكون ابعد نظراً من ذلك ونضع نصب اعيننا شتى الاحتمالات ومن هذه الاحتمالات ان القتيل قد يكون مطالباً بالثأر من قبل نفر من نفس قبيلته الذين ضمن غزاتك الان ، فقتله طالب الثأر ، وبعد ذلك حمله القاتل ليلا ووضعه في وسط مخيمنا ، لكي تبتعد الانظار عنه ، ثم استرسل وقال :ومن هذه الاحتمالات واقربها الى الصواب ان يكون القاتل عدواً لك ايها الامير وعدوا لنا في آن واحد ويقصد من عمله هذا ان يوقع بيننا وبينك العداوة والبغضاء ..

لم يصغ الامير الى كلام ابن زيد بل اعاد العبارة الاولى مؤكداً بأنـــه سوف ينفذ وعيده فيما اذا جاء الوقت المعين ولم يخبره أحد من هؤلاء بالقاتل..

وبعد ذلك خيّم على الحاضرين جو من الصمت ، والذهول .. امـا الامير فقد قام من مجلسه وقال بجد وحزم :

– موعدكم غداً مساء .

وعندها لحق به ابن زيد وقال :

– أمصمم الامير على رأيه الاخير ؟ ..

فرد عليه بقسوة وعنف بقوله:

من هنا الى الغد سوف يتضح لك مدى تصميمي .. فـــيما اذا لم تخبروني بقاتل ضيفي ، فجاوبه ابن زيد بهدوء ورزانة قائلا :

– اعتقد انك اذا وجدت من يخبرك الآن بالقاتل فسوف ينتهي الاشكال ..
فسر الامير لهذه البادرة وظن انه وصل الى ما يريد فقال :

أجل .. أجل ينتهي الاشـكال ومن الآن فليذهب الحاضرون الى امكنتهم عندما تخبرني عن القاتل ..

وعندئذ اتجه حمود الزيد الى رفاقه وقال لهم : اذهبوا الى خيامكم ، فقـــام القوم شاكرين المولى على فرجه السريـع ثم اتجه ابن زيد الى الامير وقال :

– لماذا تقتل جميـع أعيان بلدي بدون بينة تدينهم بها ، فان كنت فاعلا ولا بد، فانني اقول لك انا القاتل لضيفك.. واعاد هذه العبارة ثلاث مرات ثم قال: تفضل مر جلادك يقتلني .. فتكون انت بررت بوعدك وفي الوقت نفسه يكون المقتول ظلما منا واحداً عوضاً عن ان تحمل نفسك اثم عشرات الانفس من خيرة رجالك المخلصين الابرياء ..

اندهش الامير من هذه العبارات التي فيها تحد لسلطانه ، ولكنه تحد بمنطق وعقل ، ولم يسـع الامير الا ان راح يوجه لابن زيد الكلمات اللاذعـة التي تخفف عما في نفسه من الغضب وهي في الوقت ذاته لا تمس كرامـــة ابن زيد بسوء ، وكانت آخر كلمة قالها الامير لابن زيد ما معناها :

– اخرج من هنا يا وقح .. الخ .

وقد انتهت الازمة بفضل الموقف البطولي الذي اتخذه ابن زيد الذي كما اشرت آنفاً بأن شجاعته الادبية والعقلية في الامتحانات والمفاجآت كهذه لا تقل عن شجاعته بقلبه اذا حمي الوطيس ودارت رحى الحرب ..

اما الموقف الذي اتخذه الامير بعد ما تعذر عليه معرفة القاتل فهو انه دفع دية مضاعفة لاهل القتيل وانتهى الامر عند هذا الحد ..

لم يسبق للوصي ان سمع شيئاً من نوعها. وكان الوصي يحدق بالفتى بعينيه باشارة يفهم منها الاستفهام عما يتحدث عنه الرسول ، وكان الفتى يوميء برأسه علامة التأكيد لما يتحدث به الرسول .. وبعد ان انتهي هذا من حديثه ســـاد النادي جو من الصمت مدة قليلة وبعد ذلك دار الجدال بين الفتى والوصي كما يلي :

من الحماقة والجهل ان اسايركم بجهلكم !!؟

قال الوصي :

ـ هل هذا الكلام الذي لا ينطق به الا المجانين حقيقة صادر عنك ؟ ..

ـ اجل وسوف تسمع مني كلاماً اعظم من الذي اسمعك اياه رسولك ..

ـ ما الذي اصاب عقلك بعد سفرك الى استنبول ؟

ـ ما هو الخلل الذي بدا لك مني ؟

ـ وهل هناك جنون اكبر من حديثك هذا الذي تتحدى به اوامر طويل العمر[1] ، فلو كنت عاقلاً لادركت ما يترتب عليك من العقاب بسبب حديثك هذا ..

ـ ان من العقل أن اتحدث بمثل هذا الحديث ، ومن الحماقة والجهل والجبن ان اسايركم في جهلكم المطبق. اما العقاب الذي ينالني منكم والشيء الذي تهددني به من طرف خفي وأعني به القتل فهذا شيء لم اتخذ قراري هذا الا وانا مقدم عليه ، لانني افضل ان اموت حراً محتفظاً بكرامتي كانسان لا يذعن لاستعباد انسان

---

١ طويل العمر يعني الأمير الصبي ..

من نوعه ، وذلك خير عندي واشرف من ان اعمر بالدنيا قرناً اعيش بــه بين ظهرانيكم وانا مسلوب حرية الرأي وحرية التفكير وحرية التعبير ..

كان الوصي يصغي لكلامه وهو بأقصى ما يمكن ان يكون من التذمر والقلق .. وكان يتصبر ضابطاً اعصابه ينتظر نهــاية كلام الفتى ولكنه بالتالي فرغ صبره وقاطع الفتى قائلاً :

– أكل اهل هذه البلاد والقبائل بأسرها حمقى وجهلة وانت وحدك الفاهم العاقل لانك غبت في تركيا وجئتنا ظاناً انك الوحيد الذي تفهم وان غيرك مجانين لا يفقهون ولا يفهمون ..

– اعتقد ان الخلاف بيننا بدأ من اجل رفضي لمشاركتكم بهذه الغزوة ..

– طبعاً هذا امر طويل العمر الذي لم يتأخر عن تنفيذه من هو اكبر منك قدراً وارفع حسباً ونسباً ..

– يجب اولا وقبل كل شيء ان اعلم الفائدة التي تعود على المواطنين من وراء هذه الغزوة ، كما يجب ان اعلم من هم الاعداء الذين نود ان نصب غارتنا عليهم ونقاتلهم ويقاتلوننا هل هم من الذين بيننا وبينهم خلاف بالعقيدة والوطن والدم واللغة ، ومن ثم جاؤونا معتدين على اموالنا ومحارمنا فان يكن الامر كذلك ، فسوف اقول لك من الان اللهم انني ملب لنداء الجهاد وسوف اكون في طليعة المجاهدين ، بل اعتبرني الفدائي الاول المناضل وسوف اضحي بحياتي في سبيل الدفاع عن شرف الوطن ؟ ..

ثم استطرد قائلا : اما اذا كانت غزوتكم هذه كما اظن واعتقد بأنكم اعددتموها لقتال ونهب اموال قوم نشترك واياهم بالعقيدة الروحية المقــدسة ، وبالشعور القومي النبيل وبالاحاسيس المشتركة .. واهدافنا واهدافهم متناسقة ومنسجمة

ولم يكن بيننا وبينهم كمواطنين أي خــلاف مذهبي او عقائدي .. اللهم الا الخلاف الذي بينكم وبين الزعماء الذين ينازعونكم السيادة ، فأصبح تنازعكم هذا مدعاة لاستغلال سذاجة مئات الالوف من المواطنين الذين ذهبوا ضحية لصراعكم الذي كان ولم يزل على حساب ابناء الوطن من كلا الجانبين .. اذا كان الامر كذلك كما اعتقد فاللهم انني ارفض اوامركم ..

كان الوصي يحاول ان يضبط اعصابه ولكنه في النهــاية اعياه الاحتمال وضاق ذرعاً من سماعه حديث الشاب المزعج .. فخشي ان يؤمن المستمعون بمنطقه المعقول ومبادئه الهدامــة لعرش امارته كايمان سحرة فرعون بموسى ، ولذلك صاح بالفتى قائلا :

– اسكت يا قليل الادب ثم اردف هذه العبارة : انك تتكلم كلاماً لست له أهلا .. وعندها صاح بحجّابه قائلا : اخرجوا هذا الوقح من هنا ..

فدفع الفتى حجاب الوصي وهو يقول :

– ما اكثر الذين يتحدثون حديثاً ليسوا له بأهل ..

لو عاقبته انتشرت افكاره !!!

بعدمــا خرج الفتى ، ساد المجلس الصمت ، ثم تفرق من في نادي الوصي واحداً تلو واحد . حتى انه لم يبق الا القليل جداً من النخبة المقربين ، كان الوصي يحاول ما استطاع ان لا يثير موضوع الفتى ، ولكن احد حراسه بادر الوصي بقوله :

ـ ما كنا نظن ان تترك مثل هذا الشاب الطائش بدون ان ينال منك عقاباً شديداً يكون عبرة لكل من يتجاسر على هيبة الحــكم كتجاسر هذا المغرور ..

وما ان انتهى المتحدث من هذه العبارات حتى رفع الوصي رأسه ومد بصره يمينا وشمالا ثم قال :

ـ اعتقد انه ليس بيننا احد لا نثق به ، فاجابه احد الحاضرين بقوله :

ـ أجل ليس هنا الا الاخوان المخلصون ..

وعندها تنهد الوصي وقال .

ـ لقد فكرت في الامر طويلا وشئت ان اتخذ نحوه عقابا صارما ..ولكنني تراجعت عن ذلك لارحمة به ، وانما وجدته يتحدث عن عقيدة وايمان، والايمان بالعقيدة وبالمبادىء لا يقاوم اصحابها بالعقاب..وانما يناظرون بالحجة والبرهان والمنطق المقنع .. ثم مضى الوصي الى ان قال: وأيم الله انني لو عاقبت هذا الفتى لما يأتي من عقابنا له الا ان يزداد تمرداً .. وحتى لو فرضنا اننا قتلناه فان قتلنا له سوف يحدث بين صفوف قومنا قيل وقال واخذاً ورداً ، وسوف تترامى حروف الاستفهام من أفراد قومنا كل يريد ان يعرف كنه السر الذي قتل من اجله الفتى . وسوف تكون النتيجه الحتمية هي ان تنتشر افكار الفتى الخطيرة التي اقسم لكم بالله ان لو ادرك مفهومها العميق الافذاذ البارزون من شخصيات قومنا ، وذووا الحل والعقد لتمردوا علينا جميعهم تمرداً لا يقل عنفاً عن تمرد هذا الفتى ، ولتعذر علينا قيادة جندي واحد من جنودنا .. ثم استطرد وقال:

ـ وانني ازيدكم تأكيداً بأن افكار هذا الفتى ومبادئه التي يشير اليها لو تسربت الى الجم الغفير من ساكني الجزيرة البارزين وآمنوا بها ايماناً راسخاً صادرا عن ترو وفهم ، لحدث انقلاب فكري تسفر نتائجه عن توطيد عرى الصداقة والاخوة بين بعضهم ببعض .. ومن ثم سوف تتحد صفوف قومنا وصفوف قوم خصومنا اتحاداً سيطوح بزعامة جميع المتنازعين على الزعامة ..

وعندئذ سوف يكون الحكم في النهاية للجمهور ، وآخر الامر نذهب نحن ومنافسونا ضحية لمبادىء هذا الفتى ..

وذهب الوصي بحديثه الى ان قال : وخوفاً من وقوعنا بهذا الاحتمال الحتمي فيا لو عاقبته ، من اجـل ذلك تركته وشأنه ، وختم الوصي الداهية حديثه لحاشيته الخاصة بقوله :

انني اؤكد لكم بأن هذا الفتى من المستحيل ان يبقى في مجتمعنا هذا لانه لن يستطيع ان يعيش بين ظهرانينا ، بل سوف يغادر بلادنا الى حيث القت .. وفي ذهابه تموت افكاره هذه الخطرة في مهدها ، ونكون نحن ارحنا انفسنا من انتشار فكرته بكل سهولة ..

وبعد فانه مما يدلنا على بعد نظر الوصي هو ان الفتى ما استطاع ان يعيش في بلاده بل رحل عنها واستوطن المدينة المنورة ، حيث ظل يعمل مفتشاً في سكة الخط الحديدي الحجازي ولم يعد الى بلاده حتى وحد البلاد المغفور له الملك عبد العزيز آل سعود ، وانتهت اسطورة الغزو والسلب والنهب الى غير رجعة ..

الكلمة التي غيرت مجرى حياة الفتى

- ٢٤ -

كانت الكويت في مطلع القرن الحالي الهجرى كخلية النحل يعج باللاجئين السياسيين ، وكما ان لبنان اليوم مأوى لكل عربي ساخط على حكام بلاده ، او او مطارد من قبل حكومته ، فكذلك كانت الكويت مأوى للساخطين على حاكم نجد وقتها ومركزاً للطامحين الى سيادة الجزيرة وكان من بين الفئة الاخيرة فتى في شرخ شبابه ، لم يتجاوز العقد الثاني من عمره بعد ، يمتاز عن فتيان مجتمعه بصفات كثيرة منها ما هو مادي ومنها ما هو معنوي ..

فاما الصفات المادية التي يمتاز بها هي انه رحب الذراعين قمحي البشرة عاري الاشاجع فارع الطول لا يضارعه اي فتي في قامته المديدة المهيبة ..

واما صفاته المعنوية فانه كان محطا لآمال الفتيان المغامرين ، لا لكونه من سلالة اسرة كانت صاحبة السيادة في شبه الجزيرة حقبة من الزمن ، بحكم ان ذلك العهد يؤمن أهله بالمجد الموروث اكثر من ايمانهم بالمجد الموهوب المكتسب لا ليست الامال معقودة على الفتى من هذه الناحية فحسب ، بل لان صفات الزعامة مطبوعة في شخصيته ومؤهلات القيادة متوفرة بذاته ، واخلاق السيادة بارزة على محياه ..

وبقدر ما كانت الصفات الاولى من شأنها ان تغري الفتيات الحسان وتجعلهن يحاولن ما استطعن فتنته وجلبه اليهن ليصطدنه بسلاحهن الماضي الذي يأسر

القلوب ، ويستهوي الافئدة ، بقدر ما كانت الصفات الثانية حافزات للفتيان المغامرين المتمردين ، عـــلى ، ان يستثمروا تلك الصفات لانفسهم ، وان يبذلوا ما استطاعوا من الجهد الذي يمكنهم من حراسة الفتى من غزو الجنس اللطيف لفؤاده .وهيمنتهن على مهجتة

الفتى على مفترق الطرق :

كانت ناعسات الطرف يحاولن اغراء الفتى بشتى الوسائل ومختلف الاسباب ، وكان الفتيان واقفين لهن بالمرصاد ، وكانت الفاتنات يعرفن انهن اذا لم يصدن الفتى الآن ، فانه من غير اليسير عليهن ان يظفرن بـه عندما يشغله رفاقه المتمردون بالمغامرات والثورات التي لا يؤمنّ بها ، ولذلك كن يترقبن غفلة الفتيان بفارغ الصبر ليرمين الفتى بسهامهن التي لا تخطيء الهدف ..

كان الفتيان لهن بالمرصاد ، وعلى جانب كبـــير من اليقظة والانتباه لكل ما يبدينه من حركات وسكنات نحو فتاهم معقد الآمال ، وكانوا يعلمون ان اي كسب يناله الفاتنات فانه سيكون على حساب امانيهم التي يحلمـون بتحقيقها ، على يد فتاهم الذي يتوسمون به جميع صفات الزعامة والقيادة ..

وهكذا ظل المتنافسـان يصطرعان وظل الفتى على مفترق الطرق وهو الى جانب الفتية أميل منه الى جانب الساحرات ، وان كان مهـــدداً من الاسهم المسلطة عليه في كل لحظة وحين ..

وفي غفلة من الفتيان نصبت احدى الفتيات الماهرات بالصيد شبكتها لتصطاد الفتى ، وعندما دنا الفتى من الشبكة واغراه الطعم ، واوشك ان يلقي نفسه في

قلب الفخ المنصوب ، عند ذلك اخـذ حذره وتراجع ، وراح يفكر بالاستعانة بواحد من رفاقه ذوي الخبرة ، بهذا الشأن، ولكن رفيقه هذا وان يكن لايتورع عن سلوك ذلك السبيل اذا سنحت له الفرصة ، ولكنه لا يرضى هذا المسلك لذلك الفتى الذي يبني عليه هو ورفاقه آمالاً بعيدة المدى ..

ولذلك نجد ان ذلك الرفيق كان جريئاً ومخلصاً عندما قال للفتى ما معناه :

- لقد كنت عظيم الامل في مستقبلك الزاهر ، فسيح التفاؤل بما اتوقعه فيك من مواهب القيادة الكامنة في شخصك، قوي الاعجاب بنجابتك وفتوتك .. كان ذلك قبل ان يبدو لي منك ما بدا في هذه الليلة السوداء ، وكنت اعتقد ان طموحك الى لذة المجد ، يحول دون هذا المسلك ..

كان الفتى يصغي الى ناصحـه المخلص الوفي بكل حواسه ، وما ان انتهى الناصح حتى تراجع الفتى من ساعتها ولم يفكر ان يسلك سبيلا كهذا حتى توفاه الله بعدما بلغ العقد الثامن من العمر وعـاد يحدث نفسه بالمعنى الذي اشار اليه ابو الطيب المتنبي :

ولا تحسبّن المجـد زقاً وقينة

فما المجد الا السيف والفتكة البكر

وتركك في الدنيا دوياً كأنما

تداول سمع المرء أنملـه العشر

اعتقد ان القارىء ليس بحاجة لان اذكر له اسم الفتي .. فالادلة والقرائن سالفة الذكر كلها تغني اللبيب عن ذكر اسمه وتجعله يعرفه بالاشارة ، ولا سيما والحادثة معروفـة وتناقلها الرواة عن مصدرها بالذات .. ولكنني لا بد من

المرحوم الملك عبد العزيز بن سعود



لعمرك ما هند بهمي وان دنت
ولا لي بدعدٍ من غرامٍ ولا وجدِ

ولكنْ وجدي بالعلا وصبابتي
بعارفة أسدي ومكرمة أجدي



الاشارة الى توضيح اسم ذلك الفتى الذي قـدر له ان يلعب أعظم دور بارز في تاريخ جزيرة العرب ، وان يوحد اجزاءهـا المترامية ، واعني به المرحوم الملك عبد العزيز آل سعود .

اما صاحب الكلمة التي كان لها ولا شك أكبر الاثر على مجرى حياة الفتى ، فان الرواية عندي مختلفة ، فقد رويتها عن أحد انجاله وهو الامير سلطان ، يقول انه سمعها من والده وان صاحب الكلمة هو محـمـد بن سبعان من ساكني الرياض ، كما رويتها من الامير محمد بن عبد العزيز الابن الثالث للملك عبد العزيز يقول انه سمعها ايضاً من والده وان صاحب الكلمة عبد العزيز المشوق الملقب بـ (ابو عبيد) ..

والذي اتوقعه ان كلتا الروايتين صحيحتان ، وذلك انه قـد يكون كل من سبعان والمشوق اتفقا بالرأي والمعنى والقول .

* * *

فارس البيان يهزم فارس السنان

- ٢٥ -

من هذه القصة الآتي شرحها يتضح للقارىء ان الشجاعة الادبية لا تقل وزنا عن الشاعة الحربية ، اذ لم نقــل انها في بعض المناسبات كهذه المناسبة بالذات وأمثالها يكون لها اي الشجاعة الادبية الاثر الفعال الذي لا تقوم مقامه الشجاعة الحربية ..

كان ذلك في عام ١٣١٠ هـ عندما تجادل بندر التمياط وداغر السوادي [١] وقبل الدخول في شرح الجدال الذي دار بين التمياط والسوادي والذي انتصر فيه الثاني على الأول اود ان اذكر طرفاً عن شجاعة التمياط في الحروب ، وعن ما يتمتع به من باع طويل في هذا المضمار ، فاذكر مثلا على سبيل الحصر مايقال ان فارسا من فرسان احدى القبائل طلب مبارزة التمياط وكان وقتهـــا في عنفوان فتوته والمبارزة في حالة كهذه لاتكون الا بالسيف والرمح وعلى انفراد وعندما تنازل الفارسان انقض بندر على قرنه وصفقه على هامته بـ (القرطه) صفقة هشم هامته وتدحرج بها عن ظهر جواده وجيء به الى اهله بحالة [٢] يرثى لها فهناك من اهله من يقول (انه ميئوس منه على اســـاس ان الضربة كسرت عظم الرأس ووصلت الى المخ .. وهناك من يقول ان مخه سالم لم تصل

---

١ داغر من قبيلة شمر نجد من فخذ آل جعفر من عبده..

٢ القرطة هى عبارة عن عصي كبيرة يكون على رأسها حديدة ثقيلة.

اليه الضربة وكانت العرب في حالة كهذه تقوم بعملية امتحان للجريح وتعريف ذلك انه يؤتي بقبضة من حب القمح ويطلب من الجريح ان يكظم عليهـا باضراسه فان هو استطاع ان يطحن الحبات فمعناه ان مخه سليم وانلم يستطع فهذا يعني ان مخه مصاب وليس فيه بعد ذلك أمل ، فجاؤوا بالحب فقـال واحد من اهله :

— أتريدون ان تمتحنوا سلامة مخه ؟.. قالوا :

— نعم .. فقال :

— انا اؤكد لكم ان مخه مصاب بشلل طبيعي منذ الاساس .. قالوا :

— وما دليلك فقال ؟ ..

— دليلي انه لو كان في راسه مخ لكان بامكانه ان يطلب مبـارزة اي فارس من فرسان عشيرة بندر اما انه يذهب بمحض ارادته ويطلب مبارزة بندر بالذات . . فهذا دليل على ان راسه [1] فارغ من المخ ..

هذا واحد من الادلة الواقعية التي تعبر تعبيراً واضح المعالم على فروسيةبندر وشجاعته ، واما الدليل الثاني فهو انـه عندما وقعت المعركة الطاحنة بين عبدالعزيز المتعب الرشيد وبين مبارك الصباح في تاريخ ١٣١٨ هـ ١٩٠١ مالمسماة بوقعة الطرفية ، وكان مع ابن متعب جميع فرسان قبيلته ومن ضمنهم بنـدر التمياط ، وعندما التقى الجمعان وواجه الفرسان الفرسان ، عند ذلك اصيب بندر التمياط بجرح كما قتلت فرسه ، فكر عليه فرسان من عشيرته الاقربينمن أجل أن يحملوهعلىاحدىافراسهملئلا يجهز عليهالعدو ويقضي عليه وعند ذلك صاح بهم قائلا :

---

(١) اصبحت هذه الكلمة مثلا يقال عند كل مناسبة تضارع هذه المناسبة .

- تبا لكم اتقدمون لي فرسا من جيادكم والله لن ابارح مكاني حتى تأتوني بفرس من جياد العدو ، وما كان من ابنا عمه الا ان هجموا جميعا وجاؤا له باكثر من فرس من خيل العدو .

فهذا الرجل الذي بلغت شجاعته بالحروب الى هذه الدرجة ، يأتيه شخص كداغر السوادي فيهزمه هزيمة ادبية شنعاء، مع العلم بأن القضية لو كانت مبارزة بالسيف وعلى صهوات الجياد لما استطاع داغر ولا عشرات امثاله ان يقفوا بوجه التمياط ..

أسباب الجدل وبواعثه !!

عندما كان بندر التمياط هاربا من محمد العبدالله أمير حائل ومستجيرا بجوار جدعان ابن مهيد رئيس قبيلة الفدعان [1] ، في تلك الايام أشيع خبر يفيد ان الامير محمد بن رشيد توفي ، ومما لاشك به ان هذا الخبر من شأنه ان يهلل ويكبر له كل من ابن مهيد العدو التقليدي لمحمد الرشيد كما يسر له ايضاً التمياط الذي هاجر عن اهله وبلاده بسبب غضبه على محمد . .

وبحكم انقطاع المواصلات آنذاك بين ابن مهيد الذي يقطن الاراضي الشمالية الغربية لدمشق ، وبين محمد الذي في نجد ، لم يأت احد من الجانب الثاني يفيد ابن مهيد عن صحة الخبر ، وكانت مناسبة سعيدة عندما وفد الى ابن مهيد شخص قادم من نجد ومن قبيلة شمر بالذات التي يرأسها محمد العبدالله ، ومن المسلم به ، ان يكون لدى هذا القادم الخبر اليقين عن صحة وفاة أميره . .

وهذا القادم هو داغر السوادي سالف الذكر ، جاء ليسأل عن (رجل

---

(١) راجع ص (٨٩) من شيم العرب للمؤلف في هذا الجزء

فرس [1] باعها لشخص من قبيلة ابن مهيد منذ مدة كذا سنة ، وبعدما أحسن ابن مهيد قرى ضيفه كعادته لضيوفه ، عند ذلك راح يسأله قائلا :

– ما هي أسباب مرض الامير محمد التي اودت بحياته ؟ ..

– فأجابه السو دي على الفور قائلا :

– من أين جاء اليكم هذا الخبر الذي لايستند على شيء من الصحة ..

وقبل ان يرد ابن مهيد على حديث ضيفه قال بندر التمياط موجها حديثه الى ابن مهيد :

– ان هذا الذي تسأله عن محمد رجل اعرفه كذوب ولا يعول على حديثه ، فانحرف الضيف بوجهه الى ابن مهيد بكل هدوء ورزانةوقال مشيرا بالعصىالتي يحملها الى بندر التمياط ومتجاهلا معرفته اياه :

– من هو هذا ياجدعان ؟..

فقال جدعان كيف اما تعرفه ؟ .. فقال :

– كاني اذكر انني رأيته ولكنني ناس اين كانت رؤيتي له ثم كرر العبارة والاشارة بالعصى كزيادة استفهام بل استهجان فقال ابن مهيد :

– هذا ابن عمك بندر التمياط ..

فقال بهدوء وثبات :

---

١ – معنى رجل الفرس هو ان العادات المتبعة عند القبائل لن الفرس الاصيل الطيبة اذا باعها صاحبها يستثنى في بيعه هذا فيقول : بعتك اياها الا نصفها او الا رجلها فالنصف تعنيان الفرس بعدما تنجب مهرتها الاولى يكون الخيار للبائع او للمشتري حسب الاتفاق ان يأخذاما المهرة او امها .. اما اذا كان البيع على الرجل فيكون للبائع الحق ان يملك المهرة الثالثة او الرابعة التي تنجبها الفرس

ـ يخسأ ـ ليس ابن عمي لقد برئت منه قبيلته شمر باسرها بعد قيامه بالعملية النكراء .. ثم اردف قائلا : كيف بك يا جدعان تقبل ان يدخل بيتك مثل هذا السافل الدنيء الذي قام بعمل أطهر لساني ، وأكرم مجلسك عن ذكره ..

المعتدي دائماً مغلوب !!!

لم يسع التمياط ان يصبر بعد هذا الكلام ولم يكن بامكانه ان يضبط اعصابه، بل قفز بلا شعور منه وانتضى سيفه قاصداً ان ينتقم من الضيف ، وفي سرعة كوميض البرق قفز ابن مهيد وجميع اقاربه والقوا القبض على التمياط وجردوه من سلاحه ثم قال ابن مهيد له :

ـ على رسلك ان هذا الذي تريد ان تعتدي عليه هو ضيفي ويتمتع عندي بالحصانة والحرمة كضيف بنفس الحصانة التي تتمتع بها كمستجير بحماي ..

ولم يكن لدى التمياط بعد ذلك من الحيلة الا ان خرج من نادي ابن مهيد ذليلا يجر اذيال الهزيمة والعار الذي توجه به هذا الرجل العادي ..
اما الضيف فقد كان قبل هذة المعركة بعين ابن مهيد لا يعدو الا ان يكون رجلا عادياً ، ولكنه بعد هذا الموقف البطولي ، لم يسع ابن مهيد الا ان افسح له المجلس ، وادناه بجانبه ، كما انه اصبح محطا لانظار كل من هو في ذلك النادي وموضعاً لاعجابهم ، بعد ما كان مجهولاً القدر بسبب مظهره الساذج قبل ان يعبر عن لسان حاله بالمعنى الذي اشار الية الشاعر احمد الصافي النجفي :

من كان يجهلني بالزّي منخدعا　　　فسوف يعرفني ان ضمنا النادي

وبعد ذلك استدنى ابن مهيد الضيف وأجلسه عن يمينه وهمس بأذنه بصوت منخفض قائلا :

ـ أخبرني عن الأمر الذي ارتكبه التمياط وبرئت فبيلتكم منه بسببه ..
فقال الضيف :

ـ لا يمكن ان اخبرك به سراً لان الحديث الذي قلته في مجلسك بحق التمياط كان على مسمع الجم الغفير من رجال قبيلتك ..

ـ انا لا استحسن منك ان تنال من عرض التمياط في محضر من الناس اكثر مما نلت منه فقد كفاه ما وصمته به .. ولا ارى الا انك قتلت الرجل قتلا ادبياً ومعنوياً اشد عليه من القتل المادي .. ولذلك اطلب منك ان ترحم الرجل ، لأنني اخشى ان اعدت الكلام في حفل كالسابق ان ينتحر ..

ـ اعاهدك الله ان لا اتكلم بحق التمياط الا بالشيء الذي يشهد بصحته جميع قبيلته كما ان التمياط نفسه لا يستطيع ان ينكر ما سوف اقوله ، واذا لم يعترف بما أقول ، ويكون هو الشاهد بنفسه على نفسه ، فانني اكون وقتها كذابا كما زعم باتهامه اياي امامك ؟ ..

ـ ياللعجب ما هذا الأمر الذي برئت منه قبيلته وفي الوقت ذاته تزعم انه سوف يعترف به على نفسه ؟.

ـ لا تسألني عن كنه الامر الآن ولكن الذي استطيع ان اؤكد لك به ان التمياط سوف يشهد على نفسه بكل كلمة اقولها بحقه ..

ـ اذن سوف يكون الحديث غداً ..

وعندما جاء الغد وتوافد رجال القبيلة على نادي ابن مهيد كالمعتاد واحدا بعد واحد حتى غص النادي ولم يغب احد من وجوه القوم الذين كانوا حاضرين بالأمس ما عدا التمياط الذي لزم الفراش من اثر نوبة المرض التي المت به بعد

تلك الكلمات التي هي اشد على نفسه من وقع السيف ..

بعد ذلك تصدر السوادي المجلس وافتتح الحديث بقوله :

– اعتقد انكم سمعتم ايها الاخوان ما وصمني به شيخنا وفارسنا ابو فلان «يقصد بندر التمياط» بعار الكذب الذي هو اقبح سجية يوصم بها الرجل الشريف.. ثم استرسل بحديثه الى ان قال :

ولما كان التمياط من كبار رؤوساء قبيلتي ومن الافذاذ المشهورين بالوفاء والصدق والشجاعة ولكنه بالرغم من هذه السجايا الكريمة التي طبعت بها نفسه لم يتورع عندما غضب بأن يفتري علي بخلق يعلم هو علم اليقين بأنني بريء منه كبراءة الذئب من دم يوسف .. فقد وجدت نفسي ملزماً بأن اكافح عن عرضي بأية وسيلة كانت ، وان اهاجمه بالسلاح نفسه الذي هاجمني بـه ، فصمت فارس البيان بعد هذه العبارة قليلا ثم انحرف بوجهه نحو الشيخ ابن مهيد وقال :

وكأنني بك ايها الشيخ الكريم تنتظر مني ان اشرح لك كنه الاشارة التي اتهمت بها التمياط بالامس ، ومن اجل ذلك سوف اوضح لك الحقيقة في هذه الاشارة فأقول وايم الله انني لااعرف عن التمياط ادنى شيء يمس شرفه او يحط من كرامته ، ولئن كنت اعرف عنه شيئا فانني اعرف انه الشجاع الشهم الابي الذي لايبيت على الضيم ، والذي اشهد له به هو انه بهجرته عنا والتجائه عندكم خسرنا قطبا من ابرز وانبل اقطاب قبيلتنا الذي لايعوض واخيرا ختم الضيف حديثه قائلا : كنت اتمنى ان التمياط وصمني بعار الكذب وانا بين رجال قبيلتي الذين يعرفونني جيدا فلو ، كان الامر كذلك لما اشكل عليّ الامر اعتقاداً مني بأن رجال قبيلتي كما اسلفت يعرفون حقيقة امري ، ولكنه سامحه الله اتهمني بهذا العار الوقح امام اناس لايعرفون عني شيئا ، بينما هو معروف لديهم بالصدق كما هو معروف لدينا بذلك ...

تسامح بعد الانتصار

بعدما انتهى السوادي من حديثه تضاعف اعجاب ابن مهيد به وفي الوقت ذاته راح ابن مهيد بنفسه يتشافى لمستجيره التمياط من اثر سنـان الرمح الذي طعنه به فارس البيان ويبشره بالكلام الذي سمعه منه ، فكانت هذه البشرى من ابن مهيد بلسما لجروح التمياط الذي راح يقبـــل رأس السوادي ويعترف له بخطيئته . . [1]

---

(١) رويت هذه القصة من سليمان بن رشدان منذ عشرين سنة تقريبا ومن قبيـــل الصدف اطلعت على قضية عربية مشابهة لها وذلك في جهرة خطب العرب ج ١ص١٠٦ ومضمونها يشير انه وقع بـــين عمرو ابن الاهتم ، والزبرقان بن بدر جدل بمحضر من الرســول (ص) وذلـك عندما سأل الرسول عمراً عن الزبرقان فقال عمرو : مطاع في ادنيه شديد العارضة ، مانع لـما وراء ظهره .

فقال الزبرقان والله يارسول الله انه يعلم عني أكثر مما قال : ولكنه حسدني شرفي..

فرد عليه عمرو ثانية وقال : اما لئن قال ما قال ، فوالله ماعلمته الا ضيق الصدر احمق الوالد لئيم الخال ،حديث الغني .. فلما رأى انه خالف قول الاول قوله الآخر ورأى الأنكار في عيني النبي قال : يارسول الله رضيت فقلت احسن ما علمت وغضبت فقلت اقبح ما علمت وما كذبت في الأولى ... ولقد صدقت في الآخرة ، . .فقال الرسول : ان من البيان لسحرا . .

وهذه الحادثة فيها تقارب من حيث الشبه وقد يكون هناك بعض الإختلاف عن حادثة عمرو والزبرقان من حيث الشكل .

قوة العقيدة غلبت قوة السلطة

- ٢٦ -

لا شيء في الدنيا أقوى من قوة العقيدة ، وعندما يعتقد المرء انه على حق، فلا شيء في الدنيا يقهره ، فالموت الذي هو اقصى مراحل العقوبة يعتبره المؤمن ذو العقيدة الصادقة أنه شهادة نال بها رضى مولاه ورحلة ينتقل بها من دار الشقاء والفناء الى فردوس النعيم والخلود الابدي ، والسجن يعتبر كفارة او رياضة

وليس من شك في ان المؤمن الشجاع هو اسعد بني الانسان لانه لا يمكن ان يقهر او يغلب مهما كان خصمه قويا ومهما كان ضعيفا لا قوة له ولا ناصر ..

ومن يعتقد ان انتصاره بموته .. فكيف يغلب من يحمل هذه العقيـــدة ويؤمن بها . .

والعلماء الروحانيون المؤمنون المخلصون كانوا هم اصحاب السلطة الحقيقية، ومن خلال قصتنا هذه الواقعة حوالي عام ١٢٩٠ هـ يتضح صحة ما نشير اليه ..

.. كان الامير محمد العبدالله الرشيد واضعا وقتا معينا في ناديه يقرأ فيه فصولا من التاريـخ والاحاديث النبوية وطرفـــا من كتب الحكمة والادب ، وكان الذي يتولى القراءة طالبا من التلاميذ الذين يدرسون العلوم الدينية على يد قاضي البلاد الذي يعتبر بمثابة المفتي الاكبر من حيث القضاء ، كما يشبه ما يعبر عنه برئيس الجامعة الاسلامية بصورة مصغرة وبحجم متواضع عما يسمى بـــه اليوم ، وكان الذي يتولى الاشراف على هـــذين المنصبين الشيـخ

محمد الغنيمي [1] ، وهــو الذي ينتخب الطالب الذي يقوم بمهمة القراءة في نادي الامير .. وقد وقع اختيار الشيخ على فتى من طلابه النابهين يدعى يعقوب[2] وفي احدى الايام كان الطالب يقرأ تاريخ ابن كثير ، ترجمة حياة الخليفة الثاني عمر بن الخطاب (رض) بصوته الجهوري ، وكان المستمعون ينصتون للقارىء بكل حواسهم لما في حياة عمر من عبرة وقدوة صالحة للحكام العادلين في كل زمان ومكان .. وعندما انتهى القارىء وساد الصمت وأديرت كؤوس القهوة كالمعتاد، بعد ذلك تولى الحديث نائب الامير المدعو حمود العبيد ، حيث كان الامير وقتها غائباً عن البلاد ، وراح يشيد باعجابه الشديد بشخصية عمر ، ومضى بحديثه هذا المتضمن ثناءة واطراءه للخليفة الثاني الى ان قال ما معناه :

ان اخلاق والدي [2] وقوة شخصيته الفذة تشبه الى حد كبير شخصية عمر بن الخطاب ..

وما ان انتهى الامير من حديثه عن والده حتى انبري له الفتى يعقوب قائلا ما معناه :

ـ ان البعد بين اخلاق والدك[3] وبين اخلاق عمر بن الخطاب كبعد المشرق عن المغرب ، ثم استرسل قائلا : شتان بين شخصية والدك الذي استعمل شجاعته بدافع من انانيته ولحساب نفسه واسرته ، ومن اجل النعرة القبلية الجاهلية ، وبين شخصية عمر بن الخطاب الذى اوقف حياته ونذر نفسه لرفع شان الامة

١ الشيخ الغنيمي اصله من اهالي قرية تسمى نعام وهو من سكان حائل.

٢ يعقوب من بلدة حائل وعبد الله العمر امام الجامع الكبير حالياً في حائل يكون حفيدا ليعقوب المذكور .

٣ حمود ابن عم الامير محمد وهو شاعر شعبي .. وهو الذي يتولى امارة البلاد في حالة غياب الامير .

٤ والده : هو عبيد العلي الرشيد رجل شاعر وفارس مغوار .. وكثيراً ما يكون شعره الحماسي مطابقاً لبطولته .

الاسلامية الشاملة بمفهومها الانســاني لكل من آمن بالله وبرسالته أنبياءه واليوم الاخراني كان جنسه ومهما كان لونه .. دون اية تفرقة ، بالحسب او بالنسب) ..

لم يتحمل الامير طبعاً ان يفند رأيه بأي حديث يقوله فكيف اذا كان هذا الحديث خاصاً بوالده ؟ .. ومن بدهيات الامور ان يصب جام غضبه على هذا الوقح لكي لا يتجاسر المواطنون على تنفيذ رأي الامير سواء كان فيــه شيء من الصواب او كله خطأ بخطأ ..

ولذلك صاح الامير بيعقوب قائلا ما معناه :

ـ أمثلك يزدري والدي هذا الازدراء ..؟

ثم استرسل بحديثه قائلا : ـ اليس لديك من الادب ما يجعلك تتحدث عن شخصية عمر بكل ما هو له أهل .. ونحن نشاركك الاعجاب ، فلك ان تفعل ذلك لو كنت مؤدبا دون ان تسيء الى حرمة والدي وتنال منه، فقال يعقوب :

ـ انت الذي جلبت الاساءةالى والدك عندما قارنت بينه وبين أمير المؤمنين الفاروق ، ولو قارنته بنفسك او بأي من شئت من اسرتك لما اجبتك .. اما وقد قارنته بشخصية افضل العرب والمسلمين بعد محمد ص وأبي بكر (ص) بعد ذلك أصبح الجواب مني فرضاً واجبا كما يكون سكوتي جريمة يحاسبني عنه الله ويؤنبني ضميري عليه ، لان الساكت عن الحق كالناطق بالباطل ..

ومن هنا هاج الامير واشتد غضبه ولم‌يبق لديه من‌الجواب المقنع الذي‌يدحض به حجة الفتى ، الا انه قال بعدما امطر عليه وابلا من الشتائم والقذف:

ـ اخرج من هنا ..

فخرج الفتى مرفوع الرأس بعد ان قال كلمة الوداع للامير :

ـ انه لشرف حباني الله به بأن يكون طردي من ناديك بسبب انتصاري لامير المؤمنين ..

لم يكن الشيخ الغنيمي موجوداً عندما وقع الشقاق بين الامير وتلميذه يعقوب، الا انه حضر بعد ذلك بمدة وجيزة ، وما ان جلس الشيخ واحتسى كوبـاً من القهوة حتى قام الامير يشرح له القضية كما وقعت باسلوب فيه تلطف وتودد للشيخ من ناحية ، ومن ناحية اخرى فيه شكوى للشيخ على تلميـذه الذي لا يحسن الادب ولم يحترم مقام الامارة ..

ـ بعد مـا انتهى الامير من حديثه قال الشيخ بهدوء ورزانة :

ـ ماذا كان موقف زملاء يعقوب من القضية ؟ ..

فسرّ الامير لسؤال الشيخ ظاناً انه سوف يضع اللائمة على تلميذه فقال :

ـ ان تلامذتك على جانب كبير من العقل والتروي والادب وذلك بفضل توجيهاتك القيمة وتعاليمك الرشيدة التي كان لها الاثر المحسوس على سلوكهم ، حيث كانوا كلهم مؤدبين ولم يبدر منهم اي شيء من قلة الادب التى بدرت من ذلك الاحمق المعتوه الذي اضطرني ان اطرده من مجلسي بسبب تصرفاته الرعناء.

وما ان انتهى الامير من كلامه حتى قفز الشيخ من المجلس وقال :

ـ ان المكان الذي يبعد عنه يعقوب من اجل انه انتصر للحق يتحتم علي بأن لا ابقى فيه لحظة واحدة ، وان اقاطعه واقاطع التلاميذ الذين لم يغضبوا للحق الذي غضب من اجله يعقوب ..

كانت لهذه الكلمات الختامية التي تحدث بها الشيخ مع الامير صداها الايجابي في البلاد ، وخاصة عنـد تلاميذ الشيخ الذين ضاقت بهم الارض بما رحبت ، وخير

وسيلة التمسها الطلبة لرضاء شيخهم هي ان ذهبوا الى زميلهم يعقوب ، يرجونه بأن يشفع لهم عند شيخهم ، ولم يبخل يعقوب بجاهه ، بل ذهب الى شيخه وطلب منه ان يعفو عن زملائه ، فسمح الشيخ بعد ان اقسموا على انفسهم ان لا تطأ اقدامهم منزل الامير ما لم يسحب الامير كلامه السابق لزميلهم ويرضيه من جديد ..

بلغ الامير التضامن الذي اتفق عليه الشيخ وتلامذته من الاضراب عن زيارته تضامناً مع الطالب يعقوب ..

ولما كان الشيخ كما اسلفت آنفاً صاحب المنزلة الروحية التي لها اعظم تأثير فعال على المواطنين، فانه من مسلمات الامور ان يشعر الامير بقلق نفسي ووخز في ضميره ، الامر الذي جعله يتنازل عن كبريائه ويذهب وحاشيته الى منزل يعقوب ذلك الشاب الصعلوك الذي لا يملك من حطام الدنيا قطميراً ، ولكنه يملك اثمن الاشياء وأنفسها وأعزها الا وهو الايمان بالله ، والاعتماد عليه والثقة بالنفس ، والاخلاص المحض ..

كانت مفاجأة بالنسبة ليعقوب عندما ُطرق بابه وخرج لينظر من هو الطارق واذا هو بالامير يعانقه ويعتذر منه ويطلب منه ان يذهبا سوياً الى الشيخ ، فيوافق يعقوب على ذلك ويذهبان الى منزل العالم الرباني الجدير بالاعجاب والتقدير وخلود الذكر، الذي لو لم يقف بجانب تلميذه ذلك الموقف الصلب لما اضطر الامير الى تراجعه وتنازله عن عظمته حتى راح بنفسه يزور ذلك الشاب الفقير البائس الذي طرده من مجلسه بالامس ..

وعندما رأى الشيخ يعقوب بجانب الامير ادرك ان الامر بالنسبة ليعقوب انتهى ، وما دام ان تلميذه البار المخلص رضي فان الشيـــخ بطبيعة حاله سوف يرضى[1] ..

١ اعود واكرر العبارة الثانية مؤكداً بأنه مع احترامي للطالب الشجاع يعقوب، فان الفضل يعود لشيخه الغنيمي ذلك الرجل الذي لم يكن عالماً فحسب بل كان فارساً مغواراً، وهو احد ابطال المعركة التي وقعت بين بندر بن طلال الرشيد وبين هزاع بن شعلان رئيس قبيلة الرولة وذلك في تاريخ ١٢٨٦ وتسمى هذه المعركة بذبحة الردفا وقد رويت من سلمان بن رشدان ان الابطال الفرسان الذين حموا مؤخرة جنود بن رشيد هم الشيخ محمد الغنيمي صاحب الترجمة وعبد المحسن الجبر والسندي بن زويل وعلي بن حجاج .

إن من يفي مع من لا يرجى حري به أن يفي مع من يرجى !!!

- ٢٧ -

أذكر قصة اطلعت عليها في كتب الادب العربي بطلها معن بن زائدة الشيباني وهي من حيث المعنى والمقارنة تشبه الى حد بعيد هذه القصة ..

من المعروف ان معناً من قادة بني امية الاوفياء المخلصين ، وهو من رجال عهدهم الاخير ، حيث ظل وفياً ومحارباً بجانب مروان بن محمد الملقب بمروان الحمار الى آخر لحظة ، ولمعن قصص متعددة بالشجاعة وبالحلم وبالكرم وبالوفاء .. ومن اراد الاطلاع عليها فليراجع كتب الادب كالعقد الفريد وفي كتب التاريخ العربي كتاريخ أبن كثير الخ ..

وربما كان معن هو الرجل الوحيد من رجال بني امية الذي نال منصباً في العهد العباسي ، وخاصة في عهد المنصور .. موطد اركان الدولة العباسية .

كان معن في عنفوان العهد العباسي لا يسمح ان ينال احد من كرامة بني امية في مجلسه ، مما جعل الوشاة يتهمونه عند الخليفة المنصور بأنه لا زال وفياً مخلصاً للاعداء الامويين ، فامر المنصور باحضاره .. وعندما مثل بين يديه قال له المنصور :

ـ أراك لا زلت مسرفاً بوفائك لبني امية .. فلم يتردد معن عن القول :

ـ أجل يا امير المؤمنين ان من يفي مع من لا يرجى حري به ان يفي مع من يرجى ..

فما كان من المنصور الا ان قدره واكرمه واناله ثقته ومنحه منصب وال له على اليمن ..

* * *

وبطل هذه القصة رجل متواضع بسيط من حيث شخصيته ، الا انه عبر لا عن رأي ووفاء فحسب بل وعن جرأة ادبية .

هناك شاعر شعبي يدعى محمد [1] بن هويدي وقد زار هذا الشاعر الامير محمد العبد الله الرشيد في الفترة التي استولى بها على الحكم في نجد بصورة مطلقة . . وفي احد المجالس العامة راح الشاعر يتلو قصيدة كلها هجاء بحق الامام عبد الله الفيصل آل سعود وما ان بدأ الشاعر يتلو اول بيت من قصيدته حتى انطلق عليه أبو سعيد [2] الفيصل يلعنه ويسبه بملء فيه باقذر الشتائم ، فبلغ الخبر الامير محمد ، وكان البعض يظن ان الامير سوف يعاقبه شر عقاب على نيله من كرامة ضيفه ، ولكن الذي حصل عكس ما يظنه المتخرصون ، بل ان الامير بعث لسعيد الفيصل كسوة [3] وخرجية تقديراً لوفائه وأمر الشاعر ابن هويدي بأن لا يعود الى مثل ذلك .

---

١ – ابن هويدي من ساكني المجمعة واصله من قبيلة عنيزة

٢ – من موالي الامام فيصل ابن سعود

٣ – الكسوة تقوم مقام الوسام في عصرنا الحديث

رويت القصة من المرحوم عبد الله المتعب الرشيد .

يستطيع ان يسجنني ولكن لا يستطيع ان يرغمني

- ٢٨ -

قوة الارادة مصدرها قوة الايمان . وهذه الاخيرة هبة من الله ، فالشجاع اذا لم يكن مؤمناً لا يمكن ان يكون شجاعاً وعلى هذا الاعتبار تكون الجرأة الادبية وشجاعة الحروب كلاهما مصدرهما الايمان بالعقيدة والثقة بالنفس..

ومتى كان المرء مؤمناً بأن ما اصابه لم يكن ليخطئه ، وما اخطأه لم يكن ليصيبه ، وان اكبر كبير بهذا الكون هو صغير تافه امام عظمة العقيدة وقدسيتها عندما يدرك المرء هذه الظاهرة ويؤمن بعدالة قضيته فانه لا يبالي باية سلطة تهدده ..

وبطل قصتنا هذه هو ماجد كردي ، وقبل ان امضي قدماً في مواصلة البحث ، احب ان اجيب القارىء فيما اذ شاء ان يضع حرف استفهام بين قوسين مشيراً به على انني اكتب شيم العرب ، فما بالي الان آتي باسم معروف من كنيته بانه من اصل غير عربي كما يعرف الكتاب من عنوانه .

جوابي على ذلك يتلخص كما يلي :

وهو ان صاحب الترجمة مولود في مكة مهبط الوحي وقبلة العالم الاسلامي ولغته عربية ونشأته عربية وثقافته عربية وتقاليده عربية ،ومن المعلوم ان الحكم

في حالة تهدده يكون لهذه العوامل الحيوية اكثر منه لاي عامل آخر ..

وكل يعلم ان الولايات المتحدة الامريكية تضم خليطاً متبايناً من مختلف الاجناس ، ولكن كلهم مؤمنون بقوميتهم الاميركية ..

كل هذه الادلة او بعضها مبرر ولا شك ، لما اشرت اليه ، وصاحب الترجمة هو المرحوم ماجـــد كردي ، كما اسلفت من مواليد مكة تولى مديرية الاوقاف والمعارف ، وكان يملك مطبعة تسمى المطبعة الماجدية ، وقد عمـــد الشريف المرحوم الملك حسين بن علي احـــد رجاله ليشتري اوراقاً للجريدة الحكومية من الاستاذ ماجد كردي باسعار اقـــل من السعر الذي يبيعه للناس فرفض الكردي ، الا ان يشتري منه الملك كما يشتري منه سائر الناس ، فاصر الملك على رأيه وازداد صاحب المطبعة اصراراً على رأيه ، فهدد الملك بأن يستعمل سلطته فما اذا تمـــادى هذا باصراره ، فلم يكن من امر صاحب المطبعة الا ان ازداد عنفاً وتحدياً لسلطة الملك فامر الملك رجـــال شرطته ان يودعوه غياهب السجن فيما اذا لم يتنازل عن كبريائه ويبيع الورق بالثمن الذي يريده الملك ، لان القضية اصبحت بالنسبة للملك لا اهمية لهـا من حيث زيادة ثمن الورق أو قلة ثمنه ، وانما من حيث تحدي سلطته ، كما ان الاستاذ ماجد لا يرى هو الاخر اهمية بالنسبة للزيادة او النقص وانمـا ايمانـاً منه بأنه على حق وان صاحب الحق يجب ان يكون شجاعاً ، وجاء شرطي الحكومة يأمر بتنفيذ اوامر الملك وان رفض فمصيره السجن ، ففضل السجن وهو مرفوع الراس مؤمن بحقه وقال كلمته التي تعبر عن ايمانه بحقه :

ـ يستطيع الملك ان يسجنني او يقتلني ،ولكنه لا يستطيع ان يرغمني ..

ومـا يدعو الى اعجابنا بشجاعة الماجد هو انـه كلمـا ازدادت ايامه

بالسجن ازداد تمادياً باصراره وعناده. واكثر من ذلك راح يرسل من سجنه لجميع اقاربه واصدقائه بانه لا يسمح بأن يتوسط له بالشفاعة عند الملك اي واحد منهم ..

وقد ظل بالسجن حتى ان الملك حسين نفسه ، خجل من نفسه وعاد الى جادة العدل والصواب وافرج عنه .



العاقل من لايتحدى الاسد في عرينه

محدي الهبداني ومحمد بن معيهل

- ٢٩ -

الاول من قبيلة ولد سليمان والثاني من قبيلة الرولة وهو من آل شعلان ولكنه ليس من بيت الامارة ويعود نسب كل من ولد سليمان والرولة الى قبيلة عنزة التي كانت ولم تزل اكثر قبائل العرب عدداً وهذه القبيلة عدنانية النسب ..

وولد سليمان ينقسمون الى قسمين : قسم منهم من بادية سورية وقسم ثان من بادية نجد .

وبالرغم من ان كلا من ولد سليمان والرولة كلهم يشملهم اسم (عنزة) رغم ذلك فان العداوة القبلية بين الطرفين كانت على قدم وساق ..

كان محدي الهبداني شاعر حماسة ومهيجاً لابشعره فحسب بل حتى في آرائه واحاديثه كما يروي عنه الثقاة .. ومما يذكر عنه انه انتهج اسلوبا في بث روح الشجاعة والرجولة في نفسية شباب قبيلته لم يسبقه اليها احد من رجال العرب فيقال عنه انه كان يختلي بالشباب من عشيرته وهو في سن العشرين عاما فيهمس باذنيه بعبارات يوهمه بهـا قائلا له اي للشاب ان لديه فراسة بمعرفة الشاب الشجاع الابي وان فراسته هذه دلته على انه يوجد في كيانه موهبة من الشجاعة والنبل

والشهامة وصفات الزعامة والقدرة التي تمكنك ايها الشاب ان تكون في المستقبل سيد القبيلة بلا منازع ثم يزيده ايهاما بقوله : وهذه الموهبة لاتنمو ثمرتها وتينع زهرتها الا اذا حافظت على امرين : الامر الاول ان تتعهد هذه الصفات في كل حركة من حركاتك واعمالك وان تجعل من نفسك قدوة صالحة لشباب قومك لكي يعترفوا لك بالفضل والميزة التي تجعلهم يذعنون لقيـــادتك لهم على طول المدى شريطة ان تجمع بين لين الجانب والتسامح واحتمال أذية رجال قبيلتك الادنين وبين العنف وقوة الشكيمة وابداء الشجاعة اذا اعتـــدى على قبيلتك معتد من الاعداء ..

ثانيا – ان لايعلم اي واحد من شباب قومك انني اكتشفت فيك هـــذه المواهب لئلا يحسدك الحاسدون على ذلك ويكيدوا لك كيدا يجعلهم بدلا من ان يسهلوا لك السبيل الى بروزك يسعون لعرقلة همتك وحبك المكيدة لك بشتى الوسائل ومختلف الاسباب .. وهكذا كان الهبداني ينفخ في كيان كل فتى من فتيان قبيلته عزيمة تناطح السحاب وهمة تفل الحديد وروحانية متسامحة مع الاهل والاقارب وشرسة عنيفة لاتلين ولا تستكين مع الاعداء المعتدين ..

هذه صورة مصغرة عن ترجمة حياة بطل القصة . .

وفي احدى المعارك التي دارت رحاها بين فرسان قبيلة الرولة وبين فرسان قبيلة الهبداني وفي الحالة التي كان الصراع بين الجانبين قد بلغ أوجه والكر والفر بينهما وصل من العنف اقصى مداه بصورة لم ترجح بها كفة جبهة على الاخرى.. ففي تلك اللحظة (تقنطرت) اي وقعت فرس محدي الهبداني في الارض وبطبيعة الحال تجندل فارسها من فوقها وهجم عليه فرسان العدو واسروه حالا ..وكان اسر فرسان الرولة لفارس كالهبداني يعتبر وحده نصرا كبيراً .. وان يكن مثل هذا الاسر حسب العرف والعادات التقليدية لايعتبر نصراً بالمعنى الصحيح اذ ان النصر هو الذي يطرح به الفارس قرنه ارضا ويستولي على فرسه او النوع

الثاني وهو ما يستولي به الفارس على نده عن طريق المعاهدة فالطريقة الاولى تسمى بالاصطلاح المتبع عند فرسان ذلك العهد (شلما) والثانية يقال لها(منما) والفرق بينهما هو انه في الاولى اذا عف الفارس عن عدوه ولم يعاقبه بقتل ولا بأذية فان عمله هذا يعتبر حسنة وفضلا منه بينما في الاخيرة تجعل الفارس مقيداً امام العهد فلا يستطيع ان يمس أسيره بأدنى اذية وان فعل فمعناه انه نكث العهد وخفر الذمة . .

اما الطريقة الثالثة : التي اسر فيها الهبداني فهي الى الاولى اقرب وان كانت من حيث المعنى لايعاب الفارس المأسور على الطريقة التي اسر فيها الهبداني كتلك الاولى على اعتبار ان من يؤسر على الشكل الاول ربما وجه المأخذ عليه انه استسلم للعدو بدون ان يقاوم او ان يحدث له حادث يبرر استسلامه كجرح خطير او حادث الم بفرسه وعاقها عن الجري او نفاذ عتاده او عطل سلاحه الخ .. اما الاسر الذي كأسر الهبداني فانه كما اشرنا لايعاب صاحبه قطعياً بحكم انه قضاء وقدر ..

ولما كان الهبداني من نوع الرجال الثقيلي الوزن والعظيمي الهيبة على الاعداء. فان الحاقدين من اعدائه يودون ان ينالوا منه ويهمزوا من قناته حتى ولو كان هؤلاء الاعداء يعلمون ان اسره بشكل كالشكل الذي اسر به لايعاب عليه الفارس ولا يشمت به الا ان محمد ابن معبهل اراد ان يشمت بالهبداني وينال من كرامته في نادي رئيس قبيلة الرولة ابن شعلان ذلك النادي الذي يضم مئات الرجال من فرسان ووجهاء القبيلة ومن ضيوف واجانب جاءوا من كل فج عميق ..

ففي ذلك المساء الذي كان نادي ابن شعلان غاصا بشخصيات العرب على مختلف منازلهم اتجه ابن معبهل نحو محدي الهبداني الذي وان كان اسيرا

ولكن كانت معاملة شيخ القبيلة له معاملة ضيف عزيز لامعاملة اسير مضطهد..

فقال ابن معبهل بيت الشعر الآتي :

صارت علومك ياالهبادي بسايس،   تلوذ باطراف الشجر تقل بوم

وما ان انقطع صوت ابن معبهل حتى اجابه الهبداني فوراً بقصيدة عصماء من وحي البديهة وبدون ادنى تردد وعلى قافية.ووزن البيت الذي قـــاله ابن معبهل ، والذي احفظه من القصيدة ليس الا ثلاثة ابيات فقط جاء منها ما يلي:

هذا تقنطر والسبايا مَراويسْ   بِمصَادَم الفرسَان مَـــا فيه لوم

وجهك غدا به كاسبين النواميس   او بيدك من فعل النشامى او سوم

جعيْف وثر ما تَدري البيس   عن ملزماتك صاب وجهك ثلوم

شرح البيت الاول : صارت علومك ياالهبادي بسابيس:يقول الشاعر اصبحت أحاديثك المؤثرة وذيوع صيتك السابق بين اندية العرب وما يتناقـــله عنك الركبان من شجاعة وذكر جميل كل ذلك اصبـــح في الحقيقة دعاية ملفقة لاتستند على شيء من قواعد المنطق والحقيقة – بسابيس) اي ملفقة متناقضة (تلوذ بالطرف الشجر تقل بوم (ثم يمضي ويقول : والاسباب التي قضت على ما كنت توهم به العرب من شجاعة ورجولة هي عندما كشف الستار عن حقيقة أمرك في هذه المعركة التي لم تواجه بها العدو وجها لوجه وانما ذهبت تختبيء بالاشجار هربا ورعبا من مقارعة الفرسان كما يهرب البوم خوف افتراس الطيور له فيـــلوذ في المساكن الخربة التي لاتأتيها الطيور ولا يسكنها الا طير البوم الجبان ..

هذا شرح بيت الشاعر ابن معبهل واليك شرح الجواب من الشاعر الهبداني:

هذا تقنطر والسبايا مراويس　　بمصادم الفرسان ما فيه لوم

يقول الشاعر : لقد وقعت فرسي وأنا وقعت بطبيعة الحال عن ظهـــرها بسبب مصادمتي للفرسان وبسبب الجهد الذي الم بفرسي واعياها من الكر والطراد المستمر حتى نفد كل ما لديها من قوة نتيجة لمقارعة الفرسان (السبايا) اي الخيل تطلق على الجمع ولا مفرد لها) وكلمة مروس ومراويس الاولى ينعت بها المفرد من الخيل والثانية للجمع . المقصود ان الشاعر يقول في صدر البيت انه لم يستسلم جبنا وانما فرسه انطرحت ارضا بعدما اشبعها جريا بمطاردة العدو حتى نفدت قوتها وازقت .. وفي عجز البيت يقول الشاعر: ان حالة كهــــذه لايلام عليها الفارس لانها حدثت في حالة الكر والعراك والصدام مع الفرسان في ميدان الحرب ثم يمضي الشاعر في البيت الثاني فيقول :

وجهك غدو به كاسبين النواميس　　وعن ملزماتك صاب وجهك ثلوم

قبل ان اشرح هذا البيت والذي يليه اود ان اشير الى ان الشــــاعر الاول سبق ان خفرت ذمته والذي خفر ذمته لايعدو من ان يكون اما أمير قبيلته ابن شعلان او رجال من نفس اسرة ابن شعلان الذين يكونون اقرب نسبـــا من الشاعر الذي هو الآخر من الاسرة. والحادثة لطول عهدها لم اجــــد من يحفظ تفاصيلها على الوجه الاكمل وانما يؤخذ من مفهوم معاني البيتين اللذين اوردهما الشاعر كجواب على البيت الاول واللذين سوف نشرحهما فيما بعد يؤخذ من ذلك ان الشاعر الاول لايعدو ان يكون قد خفرت ذمته بصورة توحي الى انــــه

استجار به مستجير عن رئيس القبيلة او احد اقاربه الاقوياء فلم يستطع الشاعر حمايته او أنه مثلا اعتدى على جاره ولم يستطع ان يدافع عنه او يأخذ الثأر ممن اعتدى على جاره او انه اعطى عهدا لفارس ما وانزله بذمته وجاء هذا الفارس من قتله بدون ان يعبأ بعقاب من خفر ذمته الخ ..

المقصود ان الشاعر الاخير وجد على الاول مهمزا يلمزه به ويحط من قدره فكأن الشاعر الاول اعطى خصمه الاخير سلاحا ليجهز به عليه ليقطعه اربا واذا كان القتل الادبي والمعنوي امضى سلاحاً واخلد ذكراً من القتل المادي في عالم التاريـخ والادب، فان الاخير وصم الاول بجوابه بمعان من الشعر ربمـــا لولاها لما عرفنا اي شيء عن حادثة الاول وما لحق به من خفر ذمة .. ولكن القصيدة خلدت ذكر الحادثة او بالاحرى فضول الشاعر الاول الذي جنى على صاحبه حتى اوقعه فلقي ما لقيه من الهبداني الذي وصمه بقوله :

وجهك غدا به كاسبين النواميس وعن ملزماتك صاب وجهك ثلوم

جعيف وثر مارما تدري البيس وبيدك من فعل النشامى وسوم

الشرح : يقول الشاعر في البيت الاول انك رجل مخفور الذمة ووجهك قد طلاه بالسواد الرجال الشجعان اصحاب الثناء الذين خفروا ذمتك ووضعوا في وجهك نقوشا من العار واضحة المعالم .. ثم ينتقل الى البيت الثاني فيقول بصدده : انت رجل موصوم بالعار ولكنك لاتحس بعارك هـــذا لانك ميت الاحساس ومقتول الكرامـــة وهـــذا البدوي الامـــي يلتقـــي

في هذا الصدد هـــو وابو الطيب المتنبي على صعيد واحـــد عندمـــا قـــال :

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت ايلام

وهكذا اراد الهبداني في صدر هذا البيت اما في عجزه فانه يقول على الرغم من انك مخفور الذمة في جارك او مستجيرك بالاضافة الى ذلك فقـــد طعنك الصناديد الاشاوس الذين خفروا ذمتك بجروح بيـــدك لتظل شاهدة على عجزك عن اخذ الثـــأر لنفسك وتظل ايضا دليلا واضحا على جبنك عن الانتقام لنفسك ..

والشاعر يشير الى اصابة من طعنة سيف وضح اثرها في يدي خصمه ويبدو من معنى البيت ان هذه الاصابة من رؤساء القبيلة الذين لايستطيـــع الشاعر الاسبق اخذ الثار منهم وعلى اي شكل فان العجز عن اخذ الثأر او ضعف الجانب لمن تخفر ذمته لايعتبر مبرراً للجبن والاستسلام عند العرب ... وانما العـــار هو الاستسلام او نسيان الثار او تناسيه ... والمثل الدارج عند العرب يقول (العيب بالنسيان) ..

كان البيت الذي قاله الشاعر الاول والابيات التي اجابه عليها الشاعر الثاني كل ذلك كان على مسمع من رئيس قبيلة الرولة ابن شعلان الذي لم يردني اسمه وانما الذى وردني هـــذا الكلام الذي اورده رئيس القبيلة

موجهاً به الى الشاعر الاول حيث قال :

ان الانسان العاقل مهما كان شجاعا فانه لايغامر بنفسه مغامرة فاشلة ليذهب الى الاسد ويتحداه في عرينه .. يقصد بالاسد الهبداني وبالمتحدي له ابن معبهل .[1]

(١) ـ رويت هذه القصة من دهيسان الخمشى

« اذا رأيت نيوب الليث بارزة　　فلا تظنن ان الليث يبتسم »

«المتنبي»

- ٣٠ -

ليس من السهل معرفة خلق المرء والحكم عليه من حيث منظره فقد يبـدو لك انساناً طائشاً ولكنه يتصرف في جميع الاعمال التي توكل اليه تصرف العاقل الرزين. وقد تجد انساناً توحي جميع حركاته وسيرته بأنه مسرف بالجبن ولكن سرعان ما يتبخر ما كنا نتوهمه عندما تأتي الاحداث المفاجأة والملمات المباغتة التي يفاجأ بها المرء بدون ان يعمل لها ادنى حساب. فالمفاجآت وحدها هي اعظم امتحان تبرز فيها اخلاق الرجال الكامنة، وعلى سبيل المثال نقول كل من يرى المرحوم الشيخ عبد العزيز ابن زيد سفير المملكة السعودية في دمشق ولبنان ويجالسـه ويمتزج به ويعرفه كمعرفتي اياه لا يتردد قطعياً بالحكم له وعليه. فيحكم له بالكفاءة والهدوء وبعد النظر واصالة الرأي والوفاء والاخلاص لمن يأتمنه على عمله ويحكم عليه ايضاً بالاستكانة وعدم الجرأة .. كان هذا المعروف عنه وكان هـذا هو حكمي عليه خلال المدة التي عرفته بها وهي مـدة لا تقل عن عشر سنوات ولكن جاءت مناسبات جعلتني ادرك ان الرجل خلاف مـا كنت اتوهمه من عدم الجرأة .: وكانت المناسبة التي بدلت رأيي فيه هي يوم الانقلاب السوري الثاني الذي قام به اللواء سامي الحناوي في شوال ١٣٦٩ — آب ١٩٤٩ وبحكم عملي ايامها كمعاون لآمر الفوج السعودي وضابط اتصال بين رئاسة الاركان للجيش السوري وبين المفوضية السعودية بدمشق، ففي صبيحة ذلك اليوم الذي وقع فيه الانقلاب وجدتني ملزماً بأن اذهب لرئاسة الاركان لاعرف ما هي

اهداف الانقلاب الجديد ؟ ومن هو زعيمه ، فذهبت فوراً للقيـــادة يصحبني الملازم علي دياب احد ضباط الفوج السعودي. وعندما صعــدت السلم ووصلت مكتب القائد العام للجيش والقوى المسلحة هناك وجدت ضابطاً برتبة ملازم متوشحاً بلباس الميدان مما جعلني اعتقـد انه من احد رجال الانقلاب وكان الزميل علي ذياب الذي لا زال حتى الآن يعمل في الجيش السعودي برتبة عقيد يعرف هذا الضابط الذي لم يكن لي به سابق معرفة فسلم بعضنا على بعض فسألت علياً عن هذا الضابط فقال انه الملازم مصطفى الدواليبي؟ وهو شقيق معروف الدواليبي السياسي السوري فقلت للدواليبي :(يبدو انك من سبــاع الليل) اي من رجال الانقلاب.. فأجابني فوراً : اجل. قلت: هل الزعيم حسني على قيد الحياة ام لا؟ قال بل هو في عالم الاموات ..

لقد دار بيني وبين الدواليبي حديث بعد هذا النبأ لا اراني بحاجه الى كتابته الآن ، اللهم الا في مناسبة غير هذه. وبعدما تأكــدت من مصرع الزعيم ذهبت الى المكتب الاول واخذت منه صورة عن البلاغ الذي سيذاع باسم زعيم الانقلاب الثاني وكان رئيس المكتب وقتــذاك المقدم فيصل الاتاسي ويعاونه ضابطان احدهما الملازم الاول [1] رائف المعري والثاني ضابط برتبة ملازم اول ايضـــاً يدعى حامد شماط ..

المقصود انني استلمت البلاغ رقم ١ وسلمته لصاحبي الملازم علي ذياب فذهب به الذياب الى المفوضية حالا في الحين الذي بقيت فيه بالاركان لاستوضح الامر .

وبعد فترة عدت الى المفوضية فطلب مني السفير ابن زيد أن اذهب لقائد الانقلاب الجديد لاخذ منه موعداً للاجتماع به . فذهبت للحناوي احمل له طلب السفير السعودي فلم يتردد عن قوله لا مانــع عندي من ان يحضر الآن .. فعدت الى ابن زيد اخبره باستجابة الحناوي لطلبه في الوقت الحاضر فخرج ابن زيد من السفارة قاصداً الاركان وكنت بمعيته فدخلنا سوياً الى مكتب وزير الدفـــاع وقتذاك اللواء عبد الله عطفة وكنت اذكر انني مثلت نفس الرواية في الانقلاب الاول لحسني الزعيم .

١ رائف المعري هو احد رجال انقلاب ١٨ تموز الفاشل ١٩٦٣

وما ان تبادلنا التحية التقليدية حتى بدأ اللواء عبد الله عطفة حديثه يعرف السفير بقائد الانقلاب الجديد حيث قال : (هذا الزعيم سامي الحنـــاوي هو الذي قام بالانقلاب . ثم استطرد وقال وهو في الوقت ذاتـــه كان قائداً للواء الاول الذي وطد الانقلاب السابق لحسني الزعيم الخ ..) هـــذا وكان الحناوي جالساً على يمين المنصة الرئيسية التي يجلس عليها اللواء عطفة وعن يمين الحناوي الزعيم انور بنود وكل من بنود وعطفة لم يشتركا في الانقـــلاب لا الاول ولا الثاني .

كان الحناوي وقتها لابساً بذلة خاكي مشمراً عن ساعديه وعن فخذيه معاً حيث كان بنطلونه قصيراً دون ركبتيه وكان واضعاً فوق عينيه نظارة سوداء ومتوشحاً بمسدسه ويشرب السيجارة تـــلو السيجارة وكانت بطنه المسترسل وجسمه الكبير المكتنز باللحم المتراخي متبختراً كالطاووس يشعر ناظره لاول وهلة بأنه نشوان من لذة النصر . كان زعيم الانقلاب صامتاً كالتمثال لم يتكلم قطعياً اللهم الا كلمة واحدة فقط حيث تنهدوقال: لقد نصحت الزعيم حسني[1] قبل ان اقدم على ذلك ولكن الزعيم لا يريد ان يقبل النصيحة .. وبعد ما انتهى الحناوي من هذه الكلمة التي كانت هي البداية والنهاية لحديثه عند ذلك جاء

---

١ ـ لكي أتثبت من الناحية التاريخية عن صحة ما اشار اليه الحناوي بقوله انه نصح الزعيم قبل ان يقوم بانقلابه. من اجل ذلك ذهبت الى عديل حسني الزعيم وامين سره السيد نذير فنصه وذلك بعدما خرج من سجن المزة من اجل ان اتحقق من صحة ما قاله الحناوي بنصيحته للزعيم فاكد لي فنصه ان الحناوي صادق بقوله كما اكد لي ان الزعيم لم يكن يعبأ بالحناوي ولم ينظر اليه نظرة توحي بالهيبة والاجلال . ومن قرأ كتاب الرائد فضل الله ابو منصور الذي تولى اعتقال حسني الزعيم وقتله يدرك ان حسني الزعيم قتل بدون أن يعلم من هو قائد الانقلاب . والغريب في الامر ان حسني الزعيم هو الذي رفع الحناوي الى رتبة الزعيم والحناوي هو الذي اعاد الشيشكلي الى الجيش بعد ان سرحه حسني الزعيم .. وهكذا كما تدين تدان.

ر الزعيم انور بنود فقال ان الذي أيد حسني الزعيم وآزره ليس الا
نتم .. يشير بيده الى السفير ابن زيد ..

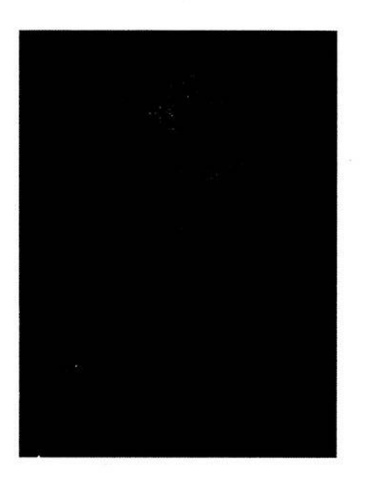
كان ابن زيد عن يسار اللواء عبدالله عطفة اي مقابلا للحناوي وبنوذ وجهاً لوجه .وكانت جلسته كعادته جلسة هادئة توحي بالسكينة والوقار لمن يعرفه جيداً. وتوحي لمن لا يعرفه بالاستكانة والاستسلام .

ولا شك ان الزعيم بنود نظر اليه من الناحية الاخيرة متوهماً ان انياب الليث الكاشرة انما هي ابتسام ..

ولقد شطح ظن الزعيم . وذلك انه ما ان نبر بتلك الجملة وعرف ابن زيد من الجملة الاولى بقية الحديث الذي يريد ان يقوله بنود حتى انقض عليه مقاطعاً حديثه قائلا بصوت عال يختلف عن عادته . « عندما يقوم الزعيم حسني بانقلابه ويأتي الجيش السوري عن بكرة ابيه مؤازراً ومؤيداً له وفي مقدمة الجيش زعيم الانقلاب الحالي حسب اعترافه وعندما يؤيد الزعيم حسني جميع رجال السياسة في سورية ثم نأتي نحن مقتدين ومتبعين لمن ايده الجيش بكامله وهلل له وكبر الرأي العام السوري قاطبة .. انكون نحن مخطئين بعد هذا ..؟ فاذا كان الامر كذلك فمعناه اننا نكون مخطئين ايضاً فيما اذا ـ اعترفنا بزعيم الانقلاب الجديد) .. قال هذه الكلمة ثم اظهر حركة تشير الى انه يريد ان يخرج ولكن سرعان ما بادره اللواء عطفه والحناوي وصاحب الكلمة بنود يسترضونه ويعتذرون منه عن تلك الكلمة التي اعتبرت سقطة لسان وحرياً بها ان تذهب بهب الريح لولا انها هي وجوابها حدثا بحضور كاتب هذه الاسطر الذي يعتبر أن الشجاعة الادبيه في ظروف حاسمة ودقيقة كهذا الظرف لا تقل اهمية عن الشجاعة الحربية في المعارك الطاحنة ..

وهذا مما جعلني اسجلها في حقل شيم العرب لتظل خالدة ابدية .

المرحوم سعيد قزاز



واحب من طول الحياة بـــذلة
قصر يريبـــك تقاصر الاقران
دقـــات قلب المـرء قائـلة لـــه
إن الحيـاة دقـائق وثواني
فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها
فالذكر . للأنسان عمر ثـــاني
أحمد شوقي

صورة المرحوم سعيد قزاز

وهو في محكمة المهداوي



يخوفني بالموت قوم وأنه

لدون الذي من عسفهم أتجرع



ألسنا اذا متنا تموتون مثلنا

إذن قد تساوى آمن ومفجع

على أن طعم الموت والمرء آمن

أمر عليه منه وهو مروع

جميل صدقي الزهاوي



واذا لم يكن من الموت بد   فمن العار ان تموت جبانا

- ٣١ -

كنت ولم ازل اسمي أن يكون لي قسط من العلم بمعرفة كل ما يصدر « من الشيم » لا المحصورة على رجال امة العرب فحسب ، بل من الشيم التي تصدر من رجال أية امة كانت ، فان بلغت امنيتي هذه فانني سوف اصدر كتاباً باسم « من شيم البشر » .

وقد كانت قرائتي للكتب المترجمة من اللغات الاجنبية الى اللغة العربية عاملاً رئيسياً ساعدني الى حد ما على معرفة مـا يكتب عن تاريخ الامم كما ساعدني على معرفة ما يحدث من النوادر والشيم من الرجال الافذاذ لتلك الامم بصورة محدودة ، ولما كنت معجباً الى حد الاسراف بكل شيء يمت الى الجرأة والشجاعة والاباء بأية صلة كانت ولا سيا الشجاعة التي يجدر بهـا ان تسمى بشجاعة المبدأ والاختبار ، راعني بهـا تلك التي تضطر صاحبها تحت ظروف قاسية الى ان يقف في قفص الاتهام موجهاً اليه من التهم التي ما من شأنها ان تؤدي بصاحبها الى حبل المشنقة ، فقد تضاعف اعجابي بمـا قرأته عن رجل المانيا الثاني هارمان غورنغ ماريشال الريخ ، وذلك عندما وقف في محكمة نورمبرغ عام ١٩٤٥ — ١٩٤٦ المكون رجالها من جبابرة الدول الكبرى وهم الروس والامريكان والفرنسيين والانكليز ، لقد وقف ذلك الرجل امام اعدائه موقف

الشجاع الجبار دون ان تلين له قناة او يبدي ادنى كلمة تعبر عن رغبته بطلب الرحمة من خصومه وانما وقف يتحدى محاكميه ويسخر منهم تارة ويمطرهم احياناً بتلك الكلمات النارية المحطمة لكبرياء رجال تلك المحكمة تحطيماً لا يقل مفعوله عن تحطيم قنابل طائراته لحصونهم وجحافلهم عندما كان الآمر الناهي لسلاح طيران الريخ الثالث وحينا كانت اسراب طائراته تتقدم من نصر الى نصر [١] وهكذا وقف غورنغ في قفص الاتهام يرشق قضاة المحكمة الرباعية بتلك العبارات القاسية التي يطيب لي ان اختصر نبذة منها بقدر الامكان .

كقوله « المنتصر هو الحاكم دائماً والمغلوب هو المتهم » وكقوله ـ لأحد مرؤسيه في المحكمة « لا تنزعج لقد كنت تتلقى الاوامر مني فقط وسوف اتحمل مسئولية ذلك وحدي » [٢] وقوله لرجال المحكمة « انكم تقولون لي بأنني كنت اعد للحرب ببناء الاسطول الجوي الالماني فهذه مهمتي فقد كنت مسئولا عن سلاح الجو الالماني ولم اكن مديراً لمدرسة بنات [٣] . » وقوله « انا مسرور لان الاميرال « دونيتز » هو الذي وقع هدنة استسلام المانيا لانني لا احب ان يقترن اسمي باستسلام المانيا في الاجيال المقبلة » واخيراً قوله « أهذه العدالة التي تتشدق بها محكمتكم ؟ لقد اعتقدت في الاول بأن المحكمة ستكون عادلة تستند على الحقائق والقوانين ، ولكن اتضح لي في النهاية العكس ، ولذلك لا اتردد في مجابهتكم بالواقع والحقيقة وجهاً لوجه فنحن مجرمون بقدر ما انتم مجرمون وجميع الافعال التي قمنا بها ، انتم ايضاً قمتم بها واذا اردتم ان تقدموننا للمحكمة على اعتبار

---

(١) استدراك ـ ارجو ان يعذرني القارىء فيما اذا وجدني خرجت عن موضوع الكتابه الخاصة بشيم العرب كما ارجو ان لا يظن احد أنني معجب بالنازيين ونظام حكمهم الاستبدادي التعسفي كلا وانمـا جئت بهذا البحث كمقدمة للقصة الاتية بحكم تشابه الظروف (٢) محاكمات نورمبرغ تأليف الدكتور ج. م جلبرت تعريب فتح الله المشعشع وجورج شاهين صائغ (ص٦)(٢) ص ٢٣ المصدر نفسه ص(٥٣)المصدر ذاته (٤) ص(٦٣)(٥) المصدر ذاته ص (٤١)

اننا مجرمون فانني استطيع ان اقدم الادلة والبراهين على الف جريمة قمتم بها . ما رأيك في أعمال الانجليز الاستعمارية ؟ وما رأيك بالفرنسيين ومستعمراتهم ؟».

وبعد فانني اعيد العبارة التي جاءت بالتعليق وهي طلب المعذرة فيما اذا خرجت عن موضوع الكتابة الخاصة بشيم العرب، والسبب هو كما ذكرت التشابه الكامل بين الجرأة والشجاعة التي ابداها المرشال غورنغ عام ١٩٤٦ في محاكمة نورمبرغ وبين الثبات والشمم وشموخ الانف والبطولة التي ابداها سعيد قزاز وزير داخلية العراق السابق وذلك امام محكمة المهداوي عام ١٩٥٩ .

واذا كان المارشال غورنغ قال تلك العبارات السالفة الذكر فان المرحوم سعيد قزاز وقف في قفص اتهام المهداوي يزأر كالأسد الهصور مستهتراً بالمحكمة وبرئيسها وبالمدعي العام الذي قال له « انك يوم ثورة ١٤ تموز جبنت وهربت مرتدياً ملابس نسائية » فاجابه القزاز بقوله :

« على اثر الثورة سلمت نفسي مختاراً الى السلطة العسكرية ، بعد ان خابرت تلفونيا متصرف لواء بغداد الحالي ومدير الاستخبارات العسكرية بانني مستعد للحضور امامهم متى شاؤا ، ومضى بحديثه الى ان قال .. وقصدي من هذه المقدمة تكذيب ما ادعاه المدعي العام بأنني ارتديت الملابس النسائية خوفاً من القتل ذلك الادعاء الذي لا نصيب له من الصحة (١) وعندما سمع رئيس المحكمة المهداوي ان القزاز يصم مدعيه العام بالتكذيب عند ذلك قال المهداوي « عوضاً عن عبارة تكذيب قل تصحيح » ولكنه مضى بحديثه دون ان يستجيب لطلب المهداوي الا بقوله « انا اخذت وعداً من سيادتكم بأن لا اقاطع » فرد عليه المهداوي قائلا – اذا طلبت انه لا يقاطعك احد لا يعني ذلك رئيس

---

(١) محكمة الشعب « على حد قول من سماها ».ج١٠ص١٩
(٢) المصدر ذاته والصفحه نفسها

المحكمة لا يقاطعك ولكن بتهجمك بكلمة تكذيب لا يمكن السكوت عنه يجب ان يصحح ويكون تصحيح – فاجابه القزاز على الفور بقوله « الدفاع دفاعي وبتوقيعي وانا مسئول عن كل كلمة وردت فيه (١) ومضى الشجاع الباسل القزاز بدفاعه الى ان قال .. انني اقف الان وارى الموت مني قاب قوسين او ادنى ، ولا ترهبني المشنقة وعندما اصعد عليها سأرى الكثيرين ممن لا يستحقون الحياة تحت اقدامي – واقف الان بين يدي الله عز وجل لاقول كلمتي الاخيرة كمسلم لا امل له الا بعدالة خالقه العظيم ، ولا ايمان له الا بدينه الاسلامي الحنيف. اقف كعراقي قدم ثلاثاً وثلاثين سنة في تعزيز الوحدة العراقية المقدسة اعلن على رؤس الاشهاد انني فخور بما قدمت لوطني الحبيب من اعمال وخدمات فخور بانني كافحت الشيوعية « الالحادية » بدافع اسلامي ووطني وتنفيذاً لقانون لا يزال يعمل به من شريعة البلاد ، فخوراً بانني كنت وزيراً فعالا افعل بوحي من ربي وعقل في رأي وقلب في صدري فحذاراً من شرور الشيوعية الدولية واخطارها على وطني العزيز واذا اصابني شيء بنتيجة هـذه المعركة فانني انقبلها بايمان عظيم ، وسيكون لاهلي واقاربي الفخر بانني اول شهيد في هـذا الميدان . لذلك اختم دفاعي بانني لا اطلب الرحمة ولا الغفران من اي بشر كان بل اترك امري الى الله واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين (٣)

لم يستطع رئيس المحكمة المهداوي ان يملك اعصابه عند سماع سعيد قزاز يتحداه وهو في قفص الاتهام ، ويرفض بكل اباء وشمم وشموخ انف طلب العفو لا منه ولا من زعيمه الاوحد الزعيم عبد الكريم قاسم .في تلك الساعة التي يقف بها القزاز تحت رحمتها ومصيره متوقف على ايماءة من الزعيم الاوحد او كلمة عابرة من رئيس المحكمة المهداوي ، ورغم ذلك نجد القزاز لم يفكر في ان يطلب الرحمة ولم يحاول ان يلتمس الغفران ، بل ولم يبدر منه اي دليل يشير الى رغبته

---

(١) المصدر ذاته ص ٢٤

بعفو يمن به عليه الزعيم الا وحد ورئيس محكمته المهداوي –وهذا مما جعل المهداوي كما ذكرنا انفاً ينفد صبره ويعجز عن سطرته على اعصابه الامر الذي جعله يعبر من ضعفه وضآلة حجته بالعبارات الحمقى التي جاء منها قوله ...« أسمعتم منطق العهد البائد واصرار المتهم على التمسك به بدليل ذكائه الخارق « يسخر منه » والاكاذيب الفورية علينا او على الادعاء العام ، الى ان قال المهداوي « فلقد آليت على نفسي بعد افتضاح هـذه ألاكاذيب ومن جملتها اكاذيب المتهم سوف لا نرد على نباح الكلاب .

وبعد فاننا انا وجدنا تشابهاً بين موقف المرشال غورنغ في محاكمة الحلفاء له وبين موقف سعيد قزاز في محكمة المهداوي ، اذا رأينا انسجاماً وتشابها في موقفهما البطولي ، فاننا سوف لا نجد اي تشابه في الظواهر الاتية .. وهو اننا نرى البون شاسعاً الى ما لا نهاية لة بين الموقف الذي وقفه المهداوي هو وزعيمة عبد الكريم قاسم حينما جيء بهما امام عبد السلام عارف في اليوم الثاني من ثورة ١٤ رمضان١٣٨٢ هـ وبين موقف سعيد قزاز فبينما نجدالزعيم الاوحد عبدالكريم قاسم يطلب الرحمة والعفو من زميله المنتصر عبد السلام عارف نجد القزاز يقول عبارته السالفة الذكر التي تفرض احترامي لصاحبها عندما اتى بها مكرراً « انا لا اطلب الرحمة والغفران من اي بشر كان » وعندما ننتهي من المقارنة بين استجداء عبد الكريم قاسم بطلبه الحياة وبين شموخ انف القزاز ، حينما ننتهي من ذلك يجدر بنا ان نقارن ايضاً بين جبن المهداوي وخور قواه واستكانته ، بل وانهيار اعصابه عندما وقف امام عبد السلام عارف في التاريخ والساعة نفسها اللتين وقف بهما زعيمه قاسم ،وقال المهداوي « هذا الكلب » [1] الذي أمرني بكل عمل قمت به – الى ان قال .. اعفوا عني واطلقوا سراحي لكي اشتم والعن لكم في الاذاعة عبد الكريم قاسم والشيوعيين واكرم الحوراني » او مـــا في معنى ذلك من العبارات التي نقلتها عن قاسم والمهداوي الانباء العالمية .

---

(١) يقصد بالكلب زعيمه الاوحد قاسم

حجة بالغة وجواب مقنع

- ٣٢ -

لو وجه الي احد السؤال التالي :

ما هي افضل السجايا المثلى التي يتصف بها المرء؟.. لقلت على الفور الشجاعة، ولست ارى حسب اعتقادي ان هناك سجية تسمو على الشجاعة فضيلة، والادلة على ذلك كثيرة فمنها ما هو خاص ومنها ما هو عام، فأما الدليل الخاص بالنسبة اليّ فهو انه سبق ان مرت علي ظروف اضطرارية جعلتني اتنازل مرغماً وكارهاً عن هذه الصفة الجليلة القدر كما ارغمتني ظروف مماثلة لتلك الظروف بان اتنازل ايضاً عن بعض الصفات المثلى ، وعندئـــذ اشعر ان وخز الضمير الذي يؤلمني بتنازلي عن القيام بواجباتي الاولى يختلف كل الاختلاف عن تنازلي عن اية صفة كانت كما اشعر ايضاً بل احس والمس ان الظروف التي ارغمتني وجعلتني اقدم على ان اتنازل عن تلك الصفة خشية الوقوع بما هو أشر منها ، أشعر فيما بعد ان تقديري هذا خاطىء كل الخطأ ، وأدرك في قراراة نفسي بل حسب خبرتي وتجاربي ان الذي يتنازل به المرء عن شجاعته [1] حباً بالسلامة او رغبة بأية مصلحة كانت ، فانه سوف يخسر قنطاراً لا من مصلحته الشخصيـــة فحسب بل من صميم حياتـــه ، هذا اذا قدرنا ان الحياة في عالم الخلود هي تلك الحياة المعنوية ، لا الحياة المادية الفانية التي اشبه ما تكون بحياة الحيوان ، هذا

(١) ولئن كنت احترم الشجاعة بمفهومها العـام الشامل فانني اعني ببحثي هذا الشجاعــة الادبية بل وبصورة اوضح اقصد شجاعة العقل والفكر والتعبير لا شجاعة السـاعد .

الدليل ادلى به بصورة خاصة بالنسبة لتجاربي المحدودة ، اما الدليل العام على ما نستشهد به هو اننا لم نجدولن نجد جبانا برز بعالم التأريخ بقدر ما نجدالعدد الذي لا يحصى من الرجال الشجعان الذين طفحت الاسفار بذكرهم ، فالكريم قد يجد من يحبه من اجل كرمه ، ولكنه قل ان يجد من يهابه ويحترمه اذا لم يكن شجاعا وكريما في آن واحد .

والشجاع قد لا يجد عدداً كبيراً من الناس يحبه . ولكنه سيجد حتما من يقدره ويحترمه ويهابه ، وخلاصة القول ، هو ان الشجاعة هي العامل الاول الرئيسي التي تجعل المرء يفرض احترامه ووقاره حتى على اعدائه ، كما انهاالدرع القوي الذي يصون الانسان من صولة وبطش اي حاكم صارم لا تأخذه اية رحمة او رأفة بمن تثبت عليه بينة بما يتهم به .

لولا ثبات جنانه للهب ضحية للوشاة

كما حصل فعلا مع صاحب هذه القصة راشد السبيتي [١] عندما اتهمه الوشاة عند الامير محمد العبد الله الرشيد بأنه يكاتب الامام عبد الرحمن الفيصل آل سعود ، وانه يريد ان يفعل ((كيت وكيت)) على رأي واقوال الوشاة المرتزقة الذين لا يخلو اي حاكم من تأثيرهم عليه وافسادهم ودسهم على المواطنين الابرياء في كل زمان ومكان ، فمنهم من تصيب منه اسهم الوشاية مقتلا فيذهب ينزف دمه حتى يلفظ انفاسه الاخير ، ومنهم من ينجو بفضل شجاعته وجرأته بالدرجة الاولى وبفضل براءته مما يتهم به وعدم قيام البينة عليه بالدرجة الثانية ، كراشد السبيتي الذي جيىء به عند محمد العبدالله ووقف امامه كما يقف اي متهم في قفص الاتهام باحدى المحاكم في عصرنا الحديث ، فوجه اليه الامير محمد

---

(١) راشد السبيتي من اهالي الرياض.

الحديث الآتي :

«لقد بلغني عنك خبر ايفيد بأن بينك وبين الامام عبدالرحمن الفيصل آل سعود مكاتبات و.. والى آخره ـ من الكلمات التي نقلها الوشاة النامون وعظموا شأنها» فأجابه السبيتي بكل جرأة وثبات بل وتحداه قائلا ..

ـ نعم وكل ما نقله لك الواشون حقيقـــة ولا يسعني انكارها ، وسوف اخبرك عما نقل اليك بكل صراحة وصدق .

ـ ومن اجل ذلك جئت بك الى هنا لاستفسر منك بوضوح عما بلغنا عنك.

ـ قلت لك سوف اخبرك بكل صراحة وامانة ،ولذلك اريد ان تصارحوني بكل خفية وبينة نقلت لـكم عني .

ـ نعم لقد بلغنا عنك بانك تكاتب الامام عبدالرحمن الفيصل.
ـ حقيقة كنت اكاتبه وسوف اكاتبه ايضا .
ـ ماذا قلت له في مكاتباتك السابقة وماذا تريد ان تقول له فيما بعد . قل لنا الحقيقة لاتخاف .
ـ قلت له « انت بنحره وانا بظهره »[1]

(١) نقلت هذه الكلمة الشعبية من الرواة النقاد كما نطق بها صاحبها ومعناهـا ان المتهم يهزأ بالامير وينقده نقداً لاذعاً بتصديقه للوشاة قائلا له على سبيل السخرية « انني قلت للامام عليك ان تهجم على جيوش الامير برجالك من الامام وانا سوف اباغته واهجم على جنوده من الخلف » والمعنى بصورة اوضح هو ان السبيتي يقول ان الوشاة اثروا عليك بحضرة الامير وارهقوا اعصابك بتضليلهم واكاذيبهم وتخويفهم لك من اعدائك حتى بلغ بك الامر الى درجة جعلتك تتخيل ان كل صديق عدواً اوتظن وهما ان اي مواطن يصوره لك الوشاة بانه يحاول ان يقلب نظام حكمك فتنهب وتصدق كل ما نقله لـك الواشون بأي مواطن كان ولو كان هذا المواطن رجـلا عادياً لا يملك حولا ولا طولا من اسباب القوة ومسبباتها ، والجدير بالذكر هو ان هده الكلمة اصبحت مثلا شعبياً يحتج بها اي متهم باية مناسبة مماثلة كهذه خاصة عندمن سمع بها وفهم معانيها البعيدة المدى.

المرحوم عبد العزيز بن زيد



فانظرْ الى عقلَ الفتى لا جِسْمِهِ

فالمــرءُ يَكْبرُ بالفَعالِ ويصغرُ



ولربما هزم الكتيبة واحدٌ

ولربما جلب الدنيئة معشر

أن الجَمالَ لفى الفؤادِ وانما

تَخفى الصواب لأنّه لا يَظهرُ

محمود سامي البارودي



قال السبيتي هذه الكلمة ثم انحرف وادار ظهره للامـير ومضى ماشيـا الى الامام بدون ان ينتظر القول الفاصل من الامير . اما الامير فقد وجد بجواب المتهم فصل الخطاب ولذلك لم ينبس ببنت شفتيه ، وهذا ما يجعلنـــا نحترم الشجاعة . اذ لو كان السبيتي من نوع بعض الرجال الجبناء الذين تخور قوام وتخونهم عزائمهم عندما توجه لهم تهمة كهذه وهو منها بريء ، حتما لو كان من هذا النوع لذهب ضحية بريئة لسهام الوشاة . ولكن ثباته ورباطة جأشه وقوة حجته ووضوح بيانه ، هذه المعاني هي التي كانت له درعا حصينا حمـــاه من سلاح الوشاة المرتزقة الذين ليس لهم في عالم الشرف والكرامة والانســانية اي مكان يهبطون به . سوى هذه الحرفة الحقير صاحبها

الفصل الثالث

الشجاعة الفكرية

والمرء يذكر بالجمائل بعده فارفع لذكرك بالجميل بناء
واعلم بانك سوف تذكر مرة فيقال احسن او يقال اساء
رتب الشجاعة في الرجال جلائل واجلهن شجاعة الآراء

احمد شوقي

بطل الانقلاب الفكري

- ٣٣ -

يقوم بالانقلابات العسكرية الشجعان المغامرون ، سواء كانوا عاقلين او غير عاقلين وسواء كان الباعث لهذا الانقلاب مبادىء يحرص الانقلابيـــون على تنفيذها ، او الدافع محبة السلطة والحقد الشخصي فقط .

كل من هذا وذاك يمكن ان يكون .. ولكن الانقلابات الفكرية ، والثورة الاجتماعية لايقوم بها الا الشجعان العاقلون المفكرون ..

والفرق بين قادة الجحافل وبين قادة الفكر هو ان الاولـــين اذا لم يكونوا اصحاب فكرة ولا مبدأ ، فان سيطرتهم ستكون سيطرة مجـــازية يحكمون بها الرقاب عن طريق الرهبة والرعب ليس الا ، بينما قادة الفكر يسيطرون على القلوب ويهيمنون على العقول ويملكون الافئدة ..

وعلى وجه العموم فان قادة الانقـــلابات العسكرية لن يكتب لهم النصر الطويل ما لم يمهد لهم قادة الفكر اولا وقبل كل شيء ، وما من ثورة عسكرية قامت بالتاريـــخ وكتب لها البقاء الا ونجد قادة الفكر مهدوا لها قبل قيامهـــا واولوها اهتمامهم بعد وقوعها عمليا ، واذا لم يكن ذلك فســـوف تكون مجرد طموح شخصي بدافع الانانية المنبعثة من حب السلطان بأية وسيلة كانت ومن

أي سبيل يأتي ، والتاريخ طافح بالادلة والشواهد الكثيرة بهذا الشأن .

حين ينعدم التوافق بين قائد الفكر وبين قائد الجيش

عندما يصطدم قائد الفكر مع قائد الجيش ، عندئذ سوف يبدو لنا للوهلة الاولى ان الاخير سوف يقضي على الاول بحكم انه يملك السلطة الزمنية ، او على الاقل يجعله خاضعا لسلطانه ، وهذا هو الامر المحتمل فيما اذا كان قائد الفكر جبانا او واهي المنطق ، اما اذا اضاف الى نضوجه الفكري شجاعة وقوة منطق ، فان النصر على طول المدى سيكون حليفا له على نده لان هذا كما اشرنا آنفاً لديه الطاقة التي يملك بها القلوب . .

وبين يدينا الان شاهد ملحوظ نستطيع ان نستمد منه الحكم في هـذا الصدد ، وهذا الشاهد حدث في مطلع القرن الهجري الحالي سنة ١٣٠٩ وذلك عندما استدعي الامير محمد العبدالله آل رشيد الشيخ عبدالله بن عبداللطيف آل الشيخ من الرياض واسكنه عنده في بلدته حائل . .

كانت الغاية من هذا الاستدعاء من حيث الظاهر الاكرام والحفاوة ، ولكن الغاية من حيث الحقيقة والواقع ، هي تحديد اقامة الشيخ والحد من نشاطه الذي يعتقد الامير انه مناوىء له ، وعلى هذا الاساس جيء بالشيخ وفرضت عليه الاقامة الجبرية بطريقة غير مباشرة وخلال المدة التي قضاها بحائل عاصمة الامارة استطاع الشيخ ان يلعب دورا هاما باستيلائه على قلوب ساكني البلاد وذلك بفضل ما اوتي الرجل من ميزات قل ان تتوفر الا بالرجال العباقرة الافذاذ ، فقد كان الى جانب علمه الجم بالعلوم الدينية ، فسيح العقل قوي الحجة ، ذا شخصية جذابة وارادة فولاذية ، كما كان سخياً لا يدخر رزق اليوم للغد . .

وكان بعلمه الغزير وبعقله الوافر وببيانه المقنع وحجته الدامغة وشخصيته الفذة. استطاع ان يسيطر على الكثير من أعيان اهالي بلاد الامير نفسه خلال المدة التي قضاها بحائل وهي ثمانية اشهر وسبعة عشر يوماً .. وكان من حسن حظ الشيخ ان الامير اسكنه في قلب حي في حائل يدعى (لبدة) ولما كان رجال هذا الحي هم ابرز رجال البلاد ، فقد كانت النتيجة ان جميع ساكني ذلك الحي ذهبوا يتنافسون على اكرامه وتقديم الضيافة له بذبح الخرفان على اسلوب الكرم العربي المألوف ، كما اصبح منزل الشيخ حاشداً بالرواد وطلاب العلم من أهل البلاد الذين يتلقون دروس التوحيد والفقة عن الشيخ بنهم وحرص شديد، كانت دروس الفقة على مذهب الامام احمد بن حنبل الذي يعتنقه جميع ساكني نجد وهذ العلم لا يؤثر على سياسة وحكم الامير بقدر ما يؤثر درس التوحيد ، الذي فيه من المعاني ما يجعل المريدين من طلاب العلم يحكمون على ابن رشيد حكماً قاسياً من حيث العقيدة ، فابن رشيد مثلا ترك الاحكام في البادية على ما هي عليه منذ العهد الجاهلي ، بدون ان يجعلهم كالحضر يعودون باحكامهم الى ما جاء في القرآن والسنة ..

والآية القرآنية من هذه الناحية صريحة ولا تقبل التأويل وهي قوله تعالى :

(ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الكافرون) . والآية الثانية : (ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الظالمون) ..

يضاف الى ذلك ان ابن رشيد موال للسلطان التركي المكروه لدى اهالي نجد منذ تجهيزه لنائبة محمد علي باشا وابنيه طوسون اولا ثم الثاني ابراهيم وما نجم عن ذلك من تقتيل العلماء واعيان اهل نجد البارزين ونهب المحصولات الزراعية على ضآلتها ونشر الفوضى في البلاد .

* * *

المقصود ان درس التوحيد الذي يتلقــاه الطلاب والمستمعون من الشيــخ اشبه ما يكون بمعول هدم لتقويض صرح عرش الامير بصورة غير مباشرة ،وفي خلال تلك الفترة الوجيزة التي قضاها الشيخ استطاع ان يحدث انقلابــا فكريا معاكسا لابن رشيد في وسط بلدته وفي صميم افئدة اقرب المقربين اليه ، فـكانت المصيبة كبيرة على ابن رشيد، لقد جيء بالشيخ خوفاً منه عندما كان بعيدا، فاذا به يتحداه من قرب ، وينشر مبادئه في قلب عاصمته ويهيمن على افئـدة أقوى قوة من رجاله المحاربين الاشداء. ولما كان الامير محمد ادهى واعقل من تولى الحكم من اسرته ، فقد ادرك ان المبادىء لا تحارب بالقوة ، ولذلك كان خير وسيـلة التمسها هي ان أذن للشيخ بان يعود الى بلاده التي جلبه منها ظانا انه بابعاده عنه انتهى من خطر مبادئه في بلاده ، ولكن الواقع اثبت خلاف ما كان يظنه الامير وذلك ان الشيخ لم يذهب الا بعد ما تبنى مبادئه مريدون يؤمنون بها ايمانــاً لا تغريه الاطماع ولا تزعزعه الاهوال مهما عظمت ، وكان على رأس المريدين شاب يدعى(صالح السالم) الذي تبنى افـكار الشيخ ومبادئه وظل ينشرهـــا بكل آجرأة واقدام ..

وأعجب ما في الامر ان صالحاً هذا كان موضع الثقة الوحيد الذي يأمنــه الامير على تدريس نساء قصره ، ولكنه عندما آمن بالافكار والمبادىء الــتي تلقاها من بطل الانقلاب الفكري هجر قصر الامارة ، وأصبح رئيســاً لحزب قوي يؤمن بمبادىء الشيخ ويأتمر بامره الذي يتلقاه منه ..

وكانت الخاتمة ان ظل ذلك الحزب شوكة في قلب امارة الرشيد ، بل كان من أهم العوامل الهدامة التي دكت عرش تلك الامارة وقوضته على طول المدى ..

الرأي قبل شجاعة الشجعان

- ٣٤ -

في منتصف العقد التاسع من القرن الثالث عشر الهجري وآخر العقد السابع من القرن التاسع عشر ميلادي ، وفي تلك الفترة رزق القروي المدعو عبد العزيز العوني الساكن في قرية من قرى القصيم المسماة بـ (الربيعية) طفلا سماه محمدا ثم ارتحل القروي بعائلته من الربيعية واستوطن مدينة بريدة عاصمة القصيم وظل يعمل بناءلبيوت الطين التي مهر باجادتها، وشاء القدر ان يلمع نجم ابن البناء في قلب شبه الجزيرة العربية وان يلعب دوراً خطيراً في تاريخ هذه البلاد وذلك منذ عام ١٣١٨هـ الى عام ١٣٤٠ اي اثنين وعشرين سنة والعوني كجهاز محرك لكثير من تلك الحوادث التي وقعت في الجزيرة ومن لا يعرف نشاط العونـي السياسي في تلك الفترة ، فانه لا يعرف شيئاً عن تاريخ الجزيرة ..

وكانت شهرة صاحب الترجمة كشاعر شعبي مهيج لشعور وحماس الجماهير اكثر من شهرته كصاحب رأي سديد يركن اليه بالشدائد والملمات ، الى ان جاءت مناسبة برز بها برأيه الصائب وبعدها احتل الرجل الصداره في أندية حكام ذلك العهد ، حيث اضاف الى شجاعته الأدبية شجاعة الرأي ..

والمناسبة التي برز بها رأيه وبلغ بعدها منزلة لا ينافسه عليها احد من بني طبقته كانت اسبابها ومسبباتها على الوجه الآتي :

كانت مدينة الكويت في مطلع القرن الهجري الحالي بزعامة الشيخ مبارك الصباح اشبه ما تكون ببيروت بعصرنا الراهن مأوى لجميع اللاجئين السياسين وكان زعماء شبه الجزيرة الناقمون على عبد العزيز المتعب الرشيد كلهم موجودين في الكويت ، وعلى رأسهم الامام عبد الرحمن (١) بن فيصل ال سعود ، وامراء القصيم كابن سليم وابن مهنا .

وكان مبارك الصباح بقدر ما يهمه ان يكرم ضيوفه اللاجئين محوطين بكل معنى من معاني العناية والاكرام ، بقدر ما كان حريصاً كل الحرص على أن لا يصطدم مع ابن متعب ، الامر الذي جعله يرسل مندوباً من عنده يطلب مهادنته ومسالمته ، فلبى ابن متعب طلب الصباح بشرط ان لا يكون للاجئين اي نشاط سياسي ضده ، فتعهد ابن صباح بتنفيذ ذلك ولكن الناقمين كانوا قد اعدوا العدة وغزوا احدى القبائل الموالية لابن متعب ، ولكي يفي ابن صباح بوعده الذي تعهد به لابن متعب ، بعث رسولاً من عنده يؤكد على الامام عبد الرحمن الفيصل بأن لا يمضي بغزوته ، كما اوصى الشيخ مبارك رسوله بأن يؤكد على الامام عبد الرحمن بأنه اذا خالف تعاليمه واصر الا ان يغزو فعليه الا يعود الى الكويت ، على اعتبار انه اخذ على عاتقه عهداً لابن متعب ، ويريد ان يفي به ..

وصل رسول مبارك الامام في الصحراء ، وابلغه رسالة الشيخ مبارك ، ثم قفل الرسول راجعاً ، كان هذا الخبر من مبارك لعبد الرحمن يعتبر تحطيماً لامال الثاني لانه عندما التجأ الى حاكم الكويت لا يريد ان يمثل بيت الشاعر الحطيئة :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها

واقعد فانك انت الطاعم الكاسي

---

(١) اي والد المغفور له الملك عبد العزيز .

لا لا يريد عبد الرحمن ذلك ، كما انـــه لا يريد الغزوة بحد ذاتها من غنيمة الابل ، وانما غايته الاساسية هي مقارعة ابن متعب ، وما دام ان مبارك الصباح اوصد هذا الباب بوجهه ، فمعناه انه يريد ان يقضي على بقية ما تبقى عنده من آمال ..

ولذلك لم ير الامام بداً من ان يجمع قومه ويشرح لهم ما تتضمنه رسالة الشيخ مبارك ويشاورهم جميعاً في الامر ..

يعرف المرء برأيه وبكتابه وبرسوله !!

وحسب طلب الامام تجمع القوم وكل ابدى رأيه ، فكانت الاراء التي سمعها الامام من ذوي الحل والعقد كلها سلبية وبعيدة عن الحل الايجابي ..

وكان بين هؤلاء القوم شاب في مطلع العقد الثالث من العمر لم يعرف عنه الا انه ينظم الشعر الشعبي وحتى الشعر لم يبلغ به بعد الدرجـــة التي تجعله يصف الشعراء المجيدين ، كما تبدو على محياه البساطة ، بل السذاجة والبلاهة معاً ، التي يؤكد لنا انه يصطنعها عامداً متعمداً بدليل قوله :

اتدبيج ونا ماني بدبوجه

وأسفه العلم كأني ما تمعنا به

والمثايل بصدري تقل منسوجه

افتح الراي الى منه غلق بابه

يقول : انني اتعمد ان اتجاهل الامر واجعل نفسي ابله كأنني لا اعرف ولا افهم وفي صدر البيت الثاني يستدرك ويقول : ان الامثال الادبية والحكم المفيدة مطبوعة في فؤادي ومنسوجة نسجاً طبيعياً .. وفي شطر البيت الاخير يقول : انه عندما تتأزم الامور وتبلغ الازمة حداً يتعذر حلها فان لدي من

سعة الادراك وبعد النظر ووفرة الرأي السديد ما يجعلني استطيع ان أحـــل الامور حلا سليماً .. وهذا البسيط هو محمد العوني بن عبد العزيز القروي البناء المتواضع سالف الذكر ، فهـــذا هو الذي فتح الباب على مصراعيه برأيه السديد .

عندما ادرك العوني أن كل فرد من رفاقه ذوي الحل والعقد ابدى رأيه دون جدوى ، بعد ذلك طلب من الامام عبد الرحمن ان يسمح له ان يعبر عن رأيه فاذن له الامام فقال :

ــ مما لا شك فيه اننا عندما تركنا بلادنا وجئنا الى الكويت ليست الغاية هي ان نظل مستسلمين للقدر وانما غايتنا بالدرجة الاولى وقبل كل شيء هي ان نناصب ابن رشيد العداء حتى نستعيد بلادنا منه مهما كان الثمن في سبيل ذلك غالياً ، وما دام ان ابن صباح وابن الرشيد قد عقدا بينهما هدنة على اساس أن يتعهد الاول للثاني ان لا يكون لنا اي نشاط سياسي يناهض ابن رشيد فهذا معناه القضاء المبرم على طموح وآمال الكبير منا قبل الصغير ..

ثم استطرد الشاب ابن القروي وقال : ونحن في هـــذه الحالة بين امرين لا ثالث لهما وللامام ان يختار أحدهما .

فاما ان نستسلم للهوان والذل والراحة ونذهب ونطلب من ابن رشيد العفو والغفران ونعود لبلادنا ونقعد بين امهاتنا العجائز فكأن احدنا واحد منهن ، واما اننا نسلك الطريق الثاني الذي يستلزم منا ان نموت اشرافـــاً او ان نحيا اعزاء ..

ثم صمت الشاب بعد ذلك فرد عليه الامام قائلا :

ــ نحن مصممون على اقتحام السبيل الثاني ولكن كيف يكون ذلك ؟ ..

فقال : — اذا كنتم مقدمين على ذلك فما علينا الا ان نضرب بتعـــاليم ابن صباح الحائط وان نستمر في سبيلنا متمردين عليه كما تمردنا على ابن رشيد وان نمضي ونصب غارتنا على أية قبيلة من القبائل الموالية لابن رشيد ونغتنم ما يمكننا اغتنامه من الابل .. ثم نعود الى الكويت بسلاحنا وقوتنا ونبيع الابـــل التي اغتنمناها في اسواق الكويت .. وفي عمليتنا هذه نكون قد اكتسبنا فوائد جمة اهمها اننا نوقع بين ابن صباح وبين ابن رشيد العداوة ، لان الاخير سوف يبلغه خبر غزوتنا هذه قبل ان يبعث ابن صباح رسولاً من عنده يعتذر منه ويفهمه في الحقيقة . وابن صباح سوف يغضب من تصرفنا المخالف لاوامره ، ولكن علينا ان نقيم عليه الحجة ونقول له انك لم تبلغنا امرك الا بعدما خرجنا من بلادك ثم نؤكد له بأننا بعدما نقوم بتسديد ما على كل فرد منا من دين بأننـا سوف نبارح الكويت نهائياً ..

وعلينا ان نثبت قولنا هذا بالفعل فيجب بعد ذلك ان نخرج من الكويت ونغزو مرة ثانية اية قبيلة من القبائل التابعة لابن متعب .. وعندئذ سوف يبلغ ابن متعب الخبر بأننا بعنا غنائمنا الاولى في وسط سوق الكويت ثم خرجنا ثانية من الكويت وغزونا احدى قبائله فعندئذ سوف لا يقبل ابن متعب اي عذر يقدمه له ابن صباح بل سوف يعتقد انه يخادعه ويمكر به .. وانه غير جاد في موضوع المسالمة من اساسه ، ولا بد ان يثور ابن متعب ويغضب ويعلن الحرب على ابن الصباح لا محالة ، وعندما تتحقق هذه الامنية فسوف يبعث ابن صباح لنا رسلا يستنجد بنا ويخطب ودنا لنقف بجانبه صفاً واحداً ضد عدونا المشترك ..

وما ان انتهى الشاب ابن البناء من حديثه حتى اجابه الامـام بتأييد رأيه وتقديره له ، وان كان بعض القوم رأوا ان هذه النظرية مجرد خيال شاعر عارية من الرأي السديد ، ولكن الامام اخذ برأي الفتى ونفذه عملياً ومضى في سبيله غازياً بدون تردد ..

الخيال يصبح حقيقة واقعية

وهذا ابن البناء العوني يصف هذه الغزوة والتي تليها في ملحمته التاريخية التي يصح ان تكون مرجعا تاريخيا ويقول :

وصله على قحطان وخلى دارهم
قوم دعا والي السما بذهابها

يشير الشاعر الى هذه الغزوة التي غزا بها الامام عبدالرحمن قبيلة قحطان .. ثم قفل راجعاً الى الكويت حسب رأي العوني الذي استحسنه الامام ونفذه حرفياً ..

كانت غزوة الامام وعودته الى الكويت ثم عرضه للابل التي اغتنمها من القبيلة فى ذمة ابن متعب كل هذه الامور كانت مصيبة كبيرة على مبارك الصباح الذي اعطى ابن متعب عهداً بأن لايقوم اللاجئون السياسيون عنده بنشاط معاد له ، فلم يسع مبارك الا ان بعث رسولا من عنده لابن متعب يعتذر منه بماحدث ويؤكد له بأن مثل هذه الغزوة لن تتكرر ، وكان ابن متعب قد جاءه من رجال قبيلة قحطان المغزوين من يشكو له ما حل بهم من أثر الغارة التي صبت عليهم ..

ولنترك الان رسول مبارك الصباح عند ابن متعب الذي اجل الاجابة على الصباح وترك رسوله دون ان يعبأ به لأنه اصبح غير مطمئن من ان ما ابداه مبارك من اعتذار هو الواقع الصحيح ، فلنتركه لنرجع اليه بعد ان نعود الى الامام عبدالرحمن الذي نفذ الخطة بحذافيرها ثم خرج من الكويت مرة ثانية بعد ان ودع الشيخ مبارك وداع الرجل الذي ينوي انلايعود اليه ،

ومضى في سبيله غازيا نايف بن بصيص احد رؤساء قبيلة مطير ، وهذا العوني يؤكد هذه الغزوة في احد ابيات ملحمته فيقول :

وصله على نايف بركن مجزل   نوما وامام المسلمين عدا بها
اخذ بريه والعواصم خلطهم   خلى منازلهم يطير ترابهـــا
وانكف على هجر وخيّم جمعه   خيله على هجر تدوس خصابها
وأمر على قومه تقود كسوبها   وادوى كما دلو عدا جذابها

كما ان العوني ذكر الغزوة الاولى التي غزاهـا الامام عبد الرحمن ، كذلـك يذكر أن الامام غزا هذه المرة عشيره (بريه) من قبيلة مطير ، كما يؤكد انه بعد هذه الغزوة ظل في الاحساء مقدار اسبوع ..

***

ولكن بعد هذه الغزوة اين يذهب الامام وغزاته ؟ .. وأي بلد يستقر بـه والى متى وهو يسير في صحراء بلا اهل ولا مأوى ..

ولنترك هؤلاء المغامرين وزعيمهم ينتظرون فرج الله ، ولنعد الى الامير بن متعب الذي بلغه الخبر بأن الامام خرج من الكويت وغزا مرة ثانية قبيلة مطير ، وقد فوجيء بهذا النبأ قبل ان يرد جواباً على رسالة ابن صبـــاح الذي لا زال رسوله ينتظر الاجابة منه ، ولذلك لم يتأخر ابن متعب عن الرد الايجابي هـذه المرة بل اعد الرسالة وسلمها الرسول الشيخ مبارك مفتوحة ومضمون الرســـالة اعلان الحرب ..

كان الشيخ مبارك هو الاخر بلغه نبأ غزوة الامام لقبيلة مطير في الحين الذي كان ينتظر الاجابة من ابن متعب على اعتذاره منه بغزوة الامام الاولى ، اما بعد ان خرج الامام من بلاده وغزا مرة ثانية ، فانه اي الشيخ مبارك لم يكن لديه ادنى شك بان ابن متعب سوف ينقض الهدنة ويعلن الحرب من جانبه ولذلك لم يكن الخبر الذي جاء به رسوله مفاجئا له .

وما ان استلم رسالة ابن متعب حتى اعد رسالة بصورة مستعجلة للامام عبدالرحمن يستنجد به بان يحضر الى الكويت ، موضحاً له الغاية التي استنجد به من اجلها بكل صراحة الا وهي الاستعداد والتأهب لمواجهة العدو المشترك الذي اعلن عليه الحرب . .

* * *

ولنرجع مرة ثانية الى الامام عبدالرحمن زعيم المغامرين الهائمين بصحرائهم الارض فراشهم والسماء غطاؤهم لا رزق لهم الا من كسب سواعدهم ، وها هو زعيمهم يقود الركب في وسط الصحراء الخالية ساعتها حتى من الطيور والوحوش ، وذلك لشدة حرارة الشمس المحرقة ، وقد آن الاوان للمغامرين ان يحطوا عن رحالهم ليرتاحوا قليلا حتى تخمد حرارة الشمس وليتناولوا طعام الغداء المكون من حبيبات التمر ، وقليلا من طحين البر . . ولكن المشكلة ان زعيمهم كان شارد الذهن ملتهب الحواس ماضي الارادة ، يهيمن على كيانه شعور بمسؤولية الحاضر والمستقبل جعله لا يحس بلهيب الشمس الكاوية ، ولا يشعر بحرارتها وكأن معروفاً الرصافي يشير اليه والى امثاله بقوله :

استبرد النـــار من حرت عزائمه
واستصغر الخطب من في نفسه عظم

وعندما كان الامام يتقدم قومه مسافة ليست بالقريبة سابحا في لجة من بحر افكاره المبعثرة بين عائلته التي تركها في الكويت وبين مصيره هو ورفاقـــه المجهول ..

في تلك اللحظة سمع صوتا من خلفه ينادي :

— ياالامام ياطويل العمر ...

فانحرف الى صاحب الصوت واذا به رجل قادم يحث راحلته بسرعة فيناوله رسالة من الشيخ مبارك الصبـــاح ، وبعدما قرأ الرسالة قال له رسول الشيـــخ مبارك :

— ان اخاك مباركا أكد علي بأن ابلغك تحياته وسلامه الجزيل ، وان «اخاك» نيابة عنه بأن تعود برفاقك الى الكويت بقدر ما لديك من السرعـــة لـــكي تقف بجانبه ضد ابن متعب ، الذي اعلن عليه الحرب . .

وقد كان مضمون الرسالة لايختلف عن الكلام الذي سمعه من الرسول : وعلى الفور قال الامام لاحد رفاقه :

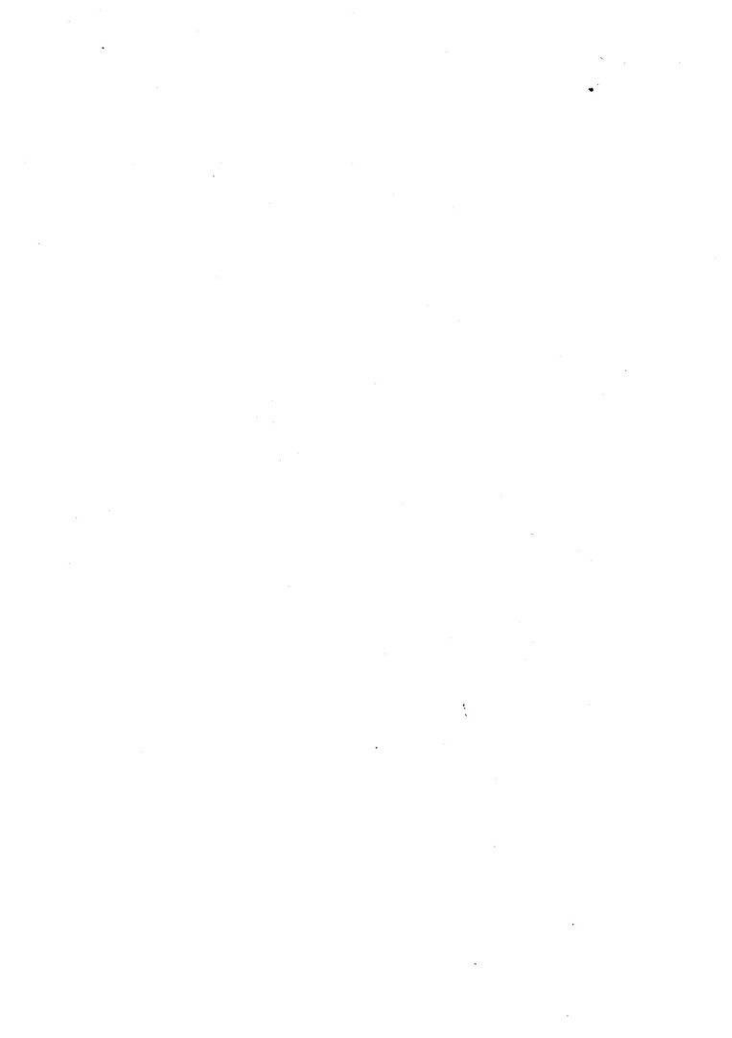
— إئتوني بالعوني ، وعندما جاء ابن البناء قال له الامام :

— ترى لو جاءك احد وقال لك ما هو منتهى امنيتك التي تحلم بها وتتمنى



واستقبل الخطب الجليل بثاقب
من العزم يعلو لاهب النار لاهبه
ورأى متى جردته وانتضيته
وجدت حساما لم تفل مضاربه

علي بن المقرب



ان تتحقق ماذا تقول ...

فأجاب العوني حالا :

ـ ليس لدي أمنية بالدنيا أحب من ان اسمع النبأ الاكيد القائل بأن ابن متعب اعلن الحرب على ابن صباح ..

وعندما انتهى العوني من حديثه مد الامام يده مصافحا له كعلامة تتخذ على التأييد في الرأي حسب العادات المأخوذ بها الى الان ، ثم بعد ذلك ناوله رسالة الشيخ مبارك ..

ومن مكانه عاد الامام عبد الرحمن الى الكويت هو ورفاقه ودخلوا مرفوعي الرأس موفوري الكرامة ومن الكويت الى الرياض ، ثم الى توحيد شبه الجزيرة بكاملها على يد المرحوم عبدالعزيز بن عبدالرحمن الذي لم تبرز موهبته كزعيم موفق الا بعد ان احتل الرياض ..

وبعد فان شجاعة الرأي هذه التي ابداها العونى والتي كان لها الاثر الملحوظ في تطور الاحداث ، لم يشر اليها أي واحد من المؤرخين ، والسبب يعود الى ما لمحت اليه في اكثر من مناسبة في مؤلفاتي ، وهو ان الكثير من الكتاب الذين كتبوا عن تاريخ بلادنا يجهلون ادب ابناء البلاد الشعبي الذي هو اكبر دليل يهتدي به الكاتب على معرفة مجرى تاريخ اية امة كانت .. والذي لاشك فيه هو انه اي مؤرخ يريد ان يتصدى لكتابة تاريخ امة ما وهو لايجيد الادب القومي لتلك الامة التي يتصدى للكتابة عنها فانه سوف يقع بأخطاء لاحصر لها

كما انه سوف يضيع عليه من الحقيقة اكثر بكثير مما يقـدمه للقراء كتاريخ ...

ولا تفوتني الاشارة الى ان الاستاذ أمين الريحـاني الذي يعتبر كتابه مرجعـاً كبيراً من مراجع تاريخ الجزيرة قـد اشار الى فرع بسيط من فروع هذه القصة بكتابة تاريخ نجد الحديث ص ١١٧ اشارة موجزة جاء نصها كما يلي :

(خرج عبدالرحمن من الكويت واغار على عشائر قحطان في روضة سدير.. اما الشيخ مبارك فكان قد رمى شبكتين في بحر السياسة دفاعاً للحرب واستعدادا لها ... اذ ارسل لابن رشيد يفاوضه بالصلح ... ومضى الريحاني الى ان قال :

ـ وكان الامام عبدالرحمن غزا غزوته وقفل راجعا فارسل اليه يأمره بأن لايرجع الى الكويت الخ . .

هذا منتهى ما اشار اليه الريحاني في هذه الحادثة ، واعتقـد ان السر الذي يجعل الريحاني وامثاله لا يعرفون شيئاً عن تفاصيل هذه الحـادثة ليس جهلهم بمعرفة ادبنا الشعبي فحسب ، بل ولكونهم حاصرين جهودهم لكتابة ما يحدث عن الافذاذ البارزين من زعماء وامثالهم ..

اما ما يقومه به افراد الشعب من اعمال ايجابية من شيم ومكارم وشجاعة في الحروب او شجاعـة في الرأي الخ . . . فهـذه الامور

لايعبأ بهـــا الكثير من مؤرخي بلادنا الاجانب ، وانما يكتفون بسرد تاريخ حياة العظماء ، مع العلم انه ما من زعيم يستطيـع ان يبرزأ في عالم التاريخ الا بواسطة رجال آزروه ومهدوا له سواء من رجـال الادب أو من رجـال الحروب او منهم جميعا ..[1]

(١) رويت هذه القصة عن المرحوم الشيخ عبدالعزيز بن زيد سفير السعودية في سوريةولبنان وكان ابن زيد صديقا حميا للمرحوم محمدالعوني..

الداهية الذي صير الاعداء انصارا

-٣٥-

قرأت في كتب الادب العربي ان احد المقربين الى اسكندر المقدوني ذي القرنين وجه اليه السؤال التالي :

ـ بماذا استقام لك الملك ؟ ..

فقال ذو القرنين :

ـ باستمالة الاعداء وتعهد الاصدقاء ..

وليس من شك ان الحاكم العاقل هو الذي يبذل جل جهده بأن يستميل اعداءه بكل ما لديه من قدرة وان لايستهين بالعدو مهما كان ضعيفا ..

وكلما استطاع الحاكم ان يهيمن على قلوب مواطنيه بأية وسيلة كانت وان يصير من الاصدقاء اخوانا ومن الاعداء انصارا ، كان ذلك دليلا واضح المعالم على بعد نظر الحاكم ورجاحة عقله وسعة افقه ..

وبطل قصتنا هذه لم يكن حاكما ، كما انه لم يكن نكرة بالنسبة لابن الجزيرة الملم بتاريخ بلاده منذ مطلع القرن الهجري الحالي حتى بداية العقد الرابع منه .. اي منذ اواخر القرن ـ التاسع عشر ميلادي الى الربع الاول من القرن العشرين ، كما انه لم يكن مجهولا بالنسبة لقارىء هذا السفر بحكم ان اسمه ورد بين دفتيه

اكثر من مرة الا وهو محمد العوني الشاعر الشعبي المهيـــج الذي لعب أعظم دور بارز في تاريخ البلاد من الناحية السياسية وخاصة في نجد فقد كان (دينمو) لكثير من الاحداث السياسية سواء حينما كان في الكويت بجانب مبارك الصباح حتى وقعة الطرفية (الصريف) او بجانب الملك عبـد العزيز آل سعود الى ان اختلف ابن سعود مع آل مهنا امراء بلدة العونى او بجانب آل مهنا الى ان انتهى امرهم من امارة القصيم على يد الملك عبد العزيز او بجانب الشيخ عجمي السعدون رئيس قبيلة المنتفق بالعراق الى ان انتهت زعامته من العراق وذهب يناضـــل بجانب مصطفى كمال اتاتورك الخ .. او بجانب ابن رشيد الى ان انتهت هو الآخر امارته في عام ١٣٤٠ هـ ١٩٢١ م ..

وقد سبق ان تحدثت عن شجاعة الرأي التي قام بها العوني عندما كان بجانب الامام عبد الرحمن الفيصل ويلذ لي ان اتحدث الآن عن شجاعة الرأي التي قام بها هذا الرجل حينما كان في حائل عند ابن رشيد وأود بأن اختصر الموضوع مـــا استطعت فأقول :

حينما غدر عبد الله بن طلال بابن عمه امير البلاد سعود بن رشيد وقتله ولقي القاتل جزاءه على يد احد موالي المغدور به في ساعتها عند ذلك هاج رجـــال قصر الامارة محاولين ان يقتلوا محمدا اخا القاتل .. لولا انه نجا في فورة الغضب باعجوبة لا مجال لشرحها الطويل ، الا ان الأمر انتهى باعتقاله وايداعه السجن على يد رجال القصر انفسهم .. وبناء على رغبة امير البلاد خلف الامير المقتول ابن اخيه عبد الله المتعب الذي لم يتجاوز سنه ثلاثة عشر عاماً ، كان العوني من انصار ومؤيدي القاتل آل طلال ، ولكنه لم يملك اية قوة مادية لمؤازرة السجين الا انه يملك سعة الحيلة وسداد الرأي وقوة الحجـــة وابتكار الفكرة ، وقوة الارادة الفولاذية التي لا تعرف الاستسلام ولا اليأس .. كل هذه العوامل استعملها العوني لانقاذ صديقه السجين ، وراح يبث آراءه بصورة غير مبـــاشرة وعن طريق

الايحاء ، فبدا أولا بالدعاية القائلة من الخطأ ان يقع الشقاق بين اسرة الامـــارة وان يقتل بعضهم بعضا ومن لم يقتل يسجن .. فكيف يفعلون ذلك بانفسهم ما دام ان الأعداء الذين يتربصون بهم الدوائر يحيطون بهم من كل جانب .. ويمضي العوني في دعايته هذه فيقول : ما دام ان القاتل اقترف حماقة دفع ثمنها فما هـو ذنب أخيه البريء السجين ومـــا دام ان الامير الان حديث سن .. اليس من الافضل ان يخرج السجين من سجنه ؟ .. مـا دام انه بريء ليؤازر ابن عمه على تحمل عبء المسؤولية وليقفا صفاً واحداً تجاه الاعداء الخارجيين ..

ولما كان رجال القصور غالباً ما يكونون (طغاما) مماليك وشبـــه مماليك ، فانه من المسلم به ان يكون مثل هؤلاء محدودى الذكاء وذلك كما ذكرت في مناسبة غير هذه بأن كل من سلبت حريته من الجماعات او الافراد فان عقله يأسن ووعيه ينضب وتفكيره يتقلص وادراكه ينقص بقدر نسبة الحرية التي تسلب منه ..

ونفر من هذه الفئة من السهل جداً على داهيــــة ماكر كالعوني ان يخدعهم ويسيرهم من حيث يشعرون او لا يشعرون ، كما سيرت الدعاية الصهيونية بعضاً من مغفلي العرب بمقتهم للفلسطينيين [1] وتشويههم لسمعتهم .

تسربت دعاية العوني بين صفوف رجال القصر وسرت كسريان شعلة اللهيب في وسط الحطب الهشيم .. وفي ليـــلة ليلاء قام هؤلاء واخرجوا السجين بدون علم من أميرهم ..

كان الامير الصبي يغط في سبات عميق ولم يعرف عن الامر الذي أبرمه رجال قصره بالليل حتى جاءه احد المقربين اليه يخبره بالنبأ المفاجيء ، فذعر الصـــبي لسماعه هذه الأخبارية فسأل المخبر مستفسراً عن النفر الذين قاموا بهـــذا العمل الذي فيه تحدي لسلطانه من ناحية ، ومن ناحية اخرى فيــه اخراج منافس له

١ انظر كتاب المؤلف (قالها الصهاينة وصدقها مغفلو العرب) ..

على الامارة ، فأجابه المسؤول بأن اخراج السجين كان باجماع تام من رجال قصرك وانهم بعثوني اليك الان لكي تأتي الى معاهدة ابن عمك السجين من اجل ان تقفا صفاً واحداً امام الاعداء [1]

لم يكن امام الامير اليافع الا ان استسلم للامر الواقع ما دام ان رجاله الذين يعتمد عليهم ويثق بهم والذين جاؤا بابن عمه واودعوه السجن هم بذاتهم الذين كسروا السجن واخرجوا السجين منه عن سلامة نية أو عن سذاجة ، او على الاصح بايحاء من الداهية الماكر (العوني) الذي ظل يرقب الحوادث من بعيد ويدير مؤامرة الانقلاب بدون ان يساهم بهـا بصورة فعلية .. اما رجال القصر فقد ادركوا فيما بعد ان عملية التوفيق بين الامير وابن عمه بعدما درج الدم بين رجال الاسرة اصبحت مستحيلة .. ولكنهم اصبحوا مجبرين بان يسيروا مع السجين الى ابعد مدى وان يحرسوه من كل اذى لانه بات لديهم من اليقين القاطع ما يجعلهم يعتقدون ان بحراستهم له يكونون حرسوا انفسهم من عقاب سيدهم كما يدركون ان حياتهم اصبحت مرهونة بحياته . .

ظلت الحرب الباردة بين الامير وبين ابن عمه فترة وجيزة واخيراً رجحت كفة ابن العم وطارت كفة الامير الذي ترك البلاد ومن عليها وشخص نحو الرياض واصبح السجين بالامس هو الامير اليوم . وعندئذ كشف القناع العوني عن وجهه وجاء الى الامير ظاناً انه سوف يكون هو (الكل في الكل) بالنظر الى ما قام به من حيلة ودهاء ، كان من نتيجتها ان اخرجه من السجن وجاء به الى اريكة الامارة ، ولكن ظن العوني جاء بغير محله ، وقد عرف هذه الظاهرة بوضوح ، عندما جاء يشفع بشخص من اهل البلاد انحاز الى الجهة المعادية ، وعندما رأى العوني ان الامير لم يعبأ بشفاعته عند ذلك جادت قريحة الشاعر بقصيدة كانت خير وثيقة تاريخية تؤيد وتؤكد صحة ما قام به العوني

---

(١) كانت هذه الحركة أول انقلاب من نوعه في شبه جزيرة العرب .

من مكر ودهاء صيّر به النفر الاعداء انصاراً له واعواناً بل وحراساً لحياته لاعتقادهم ان حياتهم اصبحت مرهونة بحياة الامير .

واليك قصيدة الماكر الداهية ·

ادركتهــــاَ بالحَزِمْ والعَزم والبَاسْ

وطفَيتَهـــا يَوم آنهاَ كَالسّعيره

جعَلت عدوَانكْ يصيرُونْ حرّاسْ

بَرَاي وَتَدْبير اوقَتـــلْ أو بَصيرة

يومأنها قَامَتْ من السّاسْ للــــراسْ

واصبَحْ سنَى نَارَكْ بِنَجْدِ كَبيره

ابْعدتْ عَنَها يَاحَمى دنْ الافَراسْ

اناَ البعيــــدْ وَصارْ غيرَي ذخيره

صَـــارَت لنَاسِ ماهقَيْنَـــاه بِقْيَاسْ

وانا لِي القْشلاَتْ صَـــارتْ بَرِيْره

انَا رَفيقَـكْ يوم يَجفُونَـــك النَّاسْ

وانا وديـــعْ سُدَودكمَ والسّـــرْيرَة

أحسبْ اذا من نلت عـــزِ ونومَاسْ

يِصْـــيرِ لِيَ جاَهه وفَخرَهْ وخَــيْره

واحسب لَو ان ذَنـــبي يُعدّلْ يا لاطعَاسْ
يكـــونْ عَندكْ خُفْ حبّة شَغـــيرة
دِنيَاك تَمضي بَينَ غَفلة وَهـــوجَاسْ
وصيّور مَاهي يَابو بَنذر قَصـــيرة

الشرح :

١ — يقول انا الذي استطعت ان استدرك الامور بعد ما وصلت بك الى الحضيض وذلك بفضل ما بذلته من الحزم والعزة وقوة البأس والصبر والمثابرة وانا الذي استطعت ان اخمد النار المتأججة عندما كان لهيبها على وشك ان يحرقك ..

٢ — هـــذا هو بيت القصيد فهو يقول : الست بصاحب الرأي السديد والتدابير المحكمة والبصيرة النافذة الذي استطاع ان يجعل اعداءك الذين اعتقلوك ووضعوا برجليك اصفاد الحديد هم انفسهم الذين يحرسون حياتك ويحافظون على سلامتك من كل اذى كما يحافظون على سلامة أنفسهم ..

٣ . ٤ — وفي البيت الثالث والرابع معناهما مرتبط .. بعضه ببعض ، فيقول بهذين البيتين يا للعجب ايهـا الامير الفارس ابعد ما سعيت لـك السعي الحثيث بكل اخلاص ووفاء ، وبعد ان اصبح لك صوت داو في قلب نجـــد وعند ساكنيها ..

٤ — ابعد ذلك يكون نصيبي منك الفشل وخيبة الامل ؟ .. ومن ثم يأتي

قوم ليس لهم شأن من قبل فيكونون المقربين واكون مبعداً منبوذاً ..

٥ – وهؤلاء الذين اصبح لهم عندك الان شأن ليسوا بالعير ولا بالنفير ولم يخطر لي ببال ان يكون لهم عندك ادنى حظوة او شأن .. اما انا الذي استحق التقدير بفضل ما قمت به من مغامرات ومؤامرات انقلابية محكمة في سبيل رفع شأنك .. فقد اصبح نصيبي منك الفشل والخسران ..

٦ – امثلي يعامل بهذا الجفاء وانا صديقك الوفي في الحين الذي جفاك وتخلى عنك اقرب المقربين من الناس وقد كنت المؤتمن الوحيد على اسراركم يا آل طلال..

٧ – كنت اعتقد يا حضرة الاميرانه حينما وصلت الى هذه المنزلة وتربعت على اريكة الامارة انني سوف انال منزلة تليق بكفاءتي ووفائي ..

٨ – وكنت اعتقد انه لو بدر مني ذنوب ترجح بالرمال انك سوف تتجاوز عن ذنوبي هذه مهما عظمت وثقلت وتنظر اليها كأنها اخف من حبة الشعير .. وان كانت اثقل من الجبال الرملية ..

٩ – في هذا البيت الاخير تشاءم الشاعر من الحياة كلها فيقول الحقيقة ان هذه الدنيا لا تستحق من يركن اليها او يثق بها ولا برجالها لأنها تمر كوميض البرق.. والمرء فيها سادر بين غفلة وبين همومه الجسام ..

والحقيقة ان اهم ما في القصيدة هو البيت الثاني من حيث دلالته على صحة وتأييد القصة ..

الفصل الرابع

شجاعة الساعد

ان الذي خلق الحديد وبأسه   جعل الحديد لساعديك ذليلا
زحزحتـــه فتخاذلت اضلاعه   وطرحته ارضاً فصل صليـــلا

أشجع الرجال يصرع أشجع الأسود

- ٣٦ -

هذه القصة رويتها عن شخص يدعى سالم الشلاش من قبيلة شمر الفرات السورية ومن عشيرة الصائح .

والذي يسترعي الانتباه في هذه الحادثة هو ما يثبت لنا ثبوتاً قاطعاً ان الشجاع من بني الانسان لديه طاقة من الشجاعة ما يفوق شجاعة الاسد .. وربما يقال ان هذا ليس بالغريب بحكم ان كثيراً من بني الانسان يقتنص الاسود في غاباتها ويصطادها في عرينها .. وهذا شيء معلوم لدينا ولكن هناك فرقاً كبيراً وبونا شاسعاً بين ما يقتنص الأسد ويصطاده عن طريق المخاتلة بوسيلة فخ ينصبه لها وبعدما يقع الاسد في المصيدة موثوقاً لا حول له ولا طول ومن ثم يأتي بعد ذلك هذا ويقتله وبين من يبارز الأسد وجها لوجه كمبارزة الفارس للفارس ، ثم يصرعه مجندلا لا بفخ ينصبه له فيصطاده حيلة ولا ببندقية يرميه بسهمها فيصرعه عن بعد ولا بمدية يطعنه بها من الخلف ، لا ليس بهذه ولا بتلك وانما بقوة قلبه الحجري وساعديه الحديديين ..

واليك القصة كما رويتها بمعناها كالآتي :

هناك فارس من ابرز فرسان قبيلة شمر الفرات شهرة بعهده يدعى (عضيب ابن موعد[١]) وكان هذا الفارس على جانب فروسيته مضيافاً وشهماً ويميل كثيراً الى سماع الأدب ، ويشاع عنه انه تأخذه نشوة اذا سمع القصص التي تمت الى الشهامة والبطولة بأدنى صلة .. كما انه اذا سمع الاحاديث التي تحمل طابع الجبن المتناهي او شيئاً من الاخلاق الحقيرة التي تتنافى وشيم العرب يبلغ به

١ توفي رحمه الله في مدينة حائل في عهد اميرها طلال بن رشيد بين عام ١٢٧٠هـ و١٢٨٢م

الانفعال اقصى مداه .. وكل من لديه اقل المام بمعرفة تاريخ الرجال البارزين من قبيلة صاحب الترجمة يعرف جيداً ما يتمتع به هذا الرجل من هذه السجايا التي فطرت جبلته عليها حتى اصبح عنواناً بارزا يضرب به المثل بين رجال قبيلته الى ان اصبح يقال عن الرجل المسرف بالشهامة كأنه عضيب بن موعد ..

ولما كان هذا الرجل كما ذكرنا سابقاً مضيافاً ويحب القصص ذات الطابع البطولي وينفر من الاحاديث التي عكس ذلك .. فقد ضافه ذات ليلة شيخ من المعمرين وهو من (الشوايا) اي من الفلاحين .. وبعد ان احسن قراه اراد ان يؤنسه فسأله عن سنه فقال الضيف : انه تجاوز مئة سنة .

عضيب – أرى انك قوي البنية فكأنك دون ذلك بكثير .

الضيف – الحقيقة ان ما قلته هو الصحيح وأظن ان السبب الذي جعلني بهذه القوة رغم انني بلغت من العمر عتياً هو انني لم اصب بمرض قط ولم ار بحياتي ما يزعجني قطعياً اللهم الا مرة واحدة منذ مدة طويلة .

عضيب – الا يحدثنا عمنا عن هذا الحادث .

الضيف – لم يكن في ذلك الحادث بالنسبة اليّ ما يشرفني يا بني .

عضيب – ان اعترافك هذا بقصورك مما يجعلني اعتبرك صدوقاً في روايتك وهذا مما يزيدني حرصا ورغبة بأن تشرح لنا هذه الحادثة التي لا بد ان يكون فيها من العبرة ما نحن بحاجة اليه .

الضيف – لقد بلغني عنك بأنك تسر وتطرب لسماعك الحوادث والقصص التي فيها من معاني الشجاعة ما هو جدير بالاعجاب كما انك تنفعل مما هو عكس ذلك ..

عضيب – وهل في الحادثة التي عندك ما يثير الانفعال .

الضيف – ان في اولها ما يجعلك ترقص طربا لسماعها ولكن في آخرهـــا الشيء الذي سوف يزعجك لا محالة..

عضيب – لقد شوقتني ياعمي لهذه القصة فهاتها ما دام ان في اولها ما يسر فلا مانع من سماعنا آخرها املا ان يكون في اولها ما يشفع بآخرها..

الضيف – ان الحادثة تتلخص بما يلي :

« كنت ذات ليلة من ليالي الصيف وفي اول الشهر العربي خارجا من منزلي قاصدا زوجتي الاخرى في مكان ناء عن المنزل الذي فيه زوجتي ام ابنائي وكان بين منزلي وبين منزل زوجتي الجديدة غابة مخيفة يخشى المرء ان يسير فيهـــا منفرداً في رابعة النهار فضلا عن الليل بحكم كثرة السباع المفترسة فيها ولذلك رأيت من الافضل ان أبيت فوق ذروة احدى تلك الاشجار العالية حتى الصباح ومن ثم اواصل رحلتي نهاراً ليكون ذلك آمن لي من مغامرتي ليلا التي اعرض نفسي فيها للخطر.. وقد نفذت فكرتي هذه فاخترت شجرة عالية وصعدت إليها وهناك استويت على فرعها .. وبعد برهة قصيرة سمعت حركة مستنكرة وكان القمر ساطعا فمددت بصري واذا به عجل فهدأ روعي بعدما خشيت انه أسد فجاء العجل وبرك تحت الشجرة التي كنت على رأسها . . وما ان اخذت مـــدة قصيرة حتى سمعت زئير الاسد فارتعدت فرائصي وقد ازددت هلعا عندما شعرت ان هذا الزئير كل بين فترة واخرى يزداد دنوا مني ، عنـــد ذلك ذكرت في نفسي ما يقال من ان السباع تشم رائحة الفريسة من مكان بعيد ، فقلت لقد جلبت لي رائحة هذا العجل مصيبة عليّ .. وقد تحقق ما كنت اتوقعه وذلك انه سرعان ما خرج علي خمسة اسود يتقدم الجميـــع واحد بارز في ضخامته ،فاقبل على العجل فقده بنابه وظل يفترس من طيب لحمه حـــتى انتفخت خـــاصرتاه .. ثم ابتعد قليلا عن الفريسة وربض .. وبعد ذلك هجمت الاربعة على فضلتـــه

وتناهبت ما تبقى من لحم العجل حتى انه لم يبق الا عظامه ثم ولت هذه السباع من حيث السبيل الذي جاءت منه بينما سيد الأسود ظل رابضا كما كان من قبل مما زادني رعباً في نفسي معتقداً انه يستطيع ان يثب علي بقفزة منه فيمزقني اربا ... وفي هذه الحالة التي كنت في منتهى الهلع والانهيار العصبي .. رأيت على ضوء القمر شابا قادما نحو الفريسة وعندما دنا منها التفت يمينا وشمالا فاذا به يرى الاسد رابضا عند ذلك ادرك ان الذي افترس العجل هذا الاسد فما شعرت حتى شمر الشاب عن ساعديه وصاح بالاسد قائلا : اتأ كل عجلي يا كلب وتنام آمنا غير خائف .. قال ذلك الفتى ثم قفز على الاسد هاجماً عليه بينما وثب الاسد نحوه .. ولكن الفتى كان اسرع وثوبا من الاسد فوضع احدى يديه بحلق الاسد واليد الاخرى احتضنه بها لكي لايتمكن من ان يقده باظفاره ..(ومن هنا قاطعه عضيب) قائلا :

ولماذا لم تنزل من شجرتك وتساعد اخاك الانسان على هذا الوحش. .

الضيف : كنت اود ان افعل شيئا من ذلك ولكنني شعرت بشلل اصابني فلم استطع ان احرك لساني فضلا عن جوارحي :

عضيب : ثم ماذا كانت النتيجة ..؟

الضيف : لقد ظل الاسد يزأر والفتى ينتخي ويصرخ بالاسد .. وكلما طال الوقت زاد صوت الفتى ارتفاعا بقدر ما ينخفض زئير الاسد حتى انقلب الزئير الى شخير وقد ظل الاسد والفتى يتصارعان حتى قرب الفجر عند ذلك تمكن الفتى ان يكتم نفس الاسد بيمينه ولم يتركه حتى وقع ميتا .. ثم جاء بجثته يسحبها الى المكان الذي فيه بقية من عظام العجل فاخذ العظام ووضعها فوق رأس الاسد وكأنه يخاطب انسانا عندما قال : لقد اخذت ثارك يا عجلي

وافترست من افترسك ... قال ذلك ثم اسند رأسه على جذع الشجرة الموالية لشجرتي واستسلم بعد هذا الصراع الى نوم عميق ولم يستيقظ من نومتـه هذه الى يومنا هذا ...

عضيب – يعني مات هذا الشاب ..

الضيف – اجل .

عضيب – فهل اصاب الاسد منه مقتلا ؟..

الضيف – كلا لم ينله الاسد بسوء ..

عضيب – اذن من اين جاءه سبب الموت ..

الضيف – دع عنك يابني التفاصيل . .

عضيب ـ بعدما وصلنا الى هذه المرحلة لا بد ان اعرف كيف مات هـــذا الفتى الشجاع . .

الضيف ـ لاتحرجني يابني لانني اذا قلت غير الحقيقة معناه انني كذبت وانا لم اعرف عن نفسي انني كذبت حتى ولو ان قول الصدق يعيبني فـــانني لن اختار عنه بديلا وان قلت الحقيقة فانك سوف تنفعل وتغضب علي ..

عضيب ـ هل قتلت الفتى ..

الضيف ـ معاذ الله انا عاجز من ان اقتل اي انسان فكيف بي ان اقتـــل قاتل الاسد ..

عضيب ـ اذن كيف مات الفتى ؟؟

الضيف ـ لا اريد ان اتي لك ببقية القصة لانها مؤلمة ..

المرحوم الملك عبد العزيز بن سعود



لعمرك ما هند بهمي وان دنت
ولا لي بدعدٍ من غرامٍ ولا وجدِ

ولكنّ وجـــدي بالعـــلا وصبابتي
بعارفة أسدي ومكرمـــة أجـــدي



عضيب ـ لايسعني الان الا ان اعرف كيف كان مصير هذا الفتى الباسل ..

الضيف ـ عندما اضطجع الفتى بعد ذلك الصراع .. بعد هذا تسلل ثعبان من نفس الشجرة التي كنت جالساً على فرعها ..

عضيب ـ يقاطع الضيف قائلا : ثم ماذا فعل الثعبان ؟

الضيف ـ دنا من الفتى فلدغه في عنقه ..

عضيب ـ ثم مات على اثرها ؟

الضيف ـ نعم مات . .

عضيب ـ ولماذا لم تنذره عن الثعبان يا جبان ؟.

الضيف ـ لقد قلت لك سابقاً بانه اصابني شلل عام لا استطيع النطق ولا الحركة من اول ساعة رأيت فيها الاسد الخمسة حتي جاء للنهار ومر من عندي قوم من عشيرتنا ونظروني فأنزلوني من الشجرة ولم أشف الا بعد مدة طويلة ..

عضيب ـ اسمح لي يا عم ان اقول ليت القوم لم ينزلوك من شجرتك وليتك مت ولم تعش فمن يكن جبانا الى هذه الدرجة فموته اولى من حياته .

الضيف ـ لقد قلت لك يابني ان آخر القصة قد يزعجك وقد لا تملك نفسك عن الانفعال . .

عضيب ـ ان ما قلته هو الحقيقة ولكنني لا اعرف ان نهاية قصتك سوف تكون بهذه الصفة وثق ان لو لم تكن ضيفا عندي ولولا ان فيك صفة احببتها وهي صدقك وصراحتك .. لولا هذه وتلك لاسمعتك مايسؤك.

الضيف ـ ولذلك وجدتني اتردد عن سرد ما تبقى من الحادثة بسبب ما يشاع عن انفعالك عند سماعك لقصة تشبه نهاية هذه القصة ..

عضيب ـ عسى ان لايكون لك ذرية من الذكور .

الضيف ـ ماذا تعني من سؤالك هذا ؟ ..

عضيب ـ اعني واتمنى ان تكون عقيما لأنه لن يخرج من صلب الجبان الا جبان مثله . ومعني ذلك زيادة عدد الجبناء في امة العرب وهذا ما لا اريده ...

ليست الوراثة قضية لا تقبل الجدل

الضيف ـ ليست هذه النظرية قاعدة مطردة . . فقد نجد شجاعاً خرج من صلبه ابناء جبناء كما نجد جبانا انجب ابناء شجعانا ...

عضيب ـ انا لا اصدق ذلك فالاسد لايمكن ان ينجب الا اسدا والثعلب من المستحيل ان ينجب الا ثعلبا .

الضيف – يابني انا اوافقك الرأي بأن الجنس من الحيوان او من البشر لايمكن ان ينجب الا جنسا من نوع جنسه ولكن لااوافقك الرأي بأن الاخلاق التي يتمتع بها انسان ما سوف يتمتع بها الابن بصورة حتمية فالابن قد يرث اباه بالخلقة ولكنه لايرثه بالاخلاق .وبالعكس ..

عضيب ـ حديثك هذا لايمكن ان اقنع به لأن عاداتنا تخالف ذلك ..

الضيف ـ ولكنني يا بني شيخ عاش قرنا كاملا واصبح لدي من التجارب ما يجعلني اثق بأنني على صواب بنظريتي هذه كما انني بحكم تجاربي ايضا

لا اعارض نظريتك هذه لأن تجاربي هدتني بأنها تكون احيانا على جانب كبير من الصواب .. ولكنها دون المغالاة التي تشير اليها اعني انها لم تكن ولن تكون قضية مسلم بها لايعتريها الشطط والتبديل .

عضيب ـ انا واثق من صحة نظريتي هذه ولن اتزحزح عنها كما انني واثق ايضاً بأن من يبلغ من العمر القدر الذي بلغته فإنه لابد الا ان يكون له من التجارب التي مرت عليه ما هو جدير بأن يكون حجة في الموضوع فإن يكن لك شيء من ذلك فإت به ..

الضيف ـ لا شك ان لي تجربة كبيرة بهذا الشأن وتجربتي هي الحكم الفاصل في خلافنا هذا ، وانما الذي اريده منك ان تدعني وشأني فأنت لك رأيك وانا لي رأيي .

عضيب ـ ولماذا لا توافينا بما لديك من تجربة بهذا الشأن وما هو الداعي عن امتناعك عن ذكر شيء فيه انتصار لرأيك وقد يكون فيه الى جانب ذلك درس وعبرة لنا ؟ ..

الضيف ـ ان في تجربتي عبرة حقا ولكن فيها ما هو مؤلم لعاطفتي ومزعج بالنسبة لشعورك الرقيق واحساسك المرهف ولذلك لاارغب بذكر تلك التجربة المؤلمة فكفاني ما ذكرته آنفاً ولا اراني بحاجة الى كشف النقاب عما اصابني من حزن وخزي في آن واحد ..

عضيب ـ فهل في تجربتك ما هو اسوأ من العار الذي حدثتنا به عن جبنك عندما رأيت بني الانسان يتصارع هو والاسد . فلم تستطع من جبنك ان تؤازره ؟ .. وهل في تجربتك ايضا من الخزي ما هو اقبح من الخزي الذي توشحت به عندما رأيت الثعبان يتسلل من الشجرة التي تجلس

على فرعها فيبلغ بك الجبن الى الحد الذي تعجز به من ان تقفز من هذه الشجرة هاربا وتصرخ بذلك الفتى ليهرب من الثعبان ؟ .. فهل في تجربتك ما هو اقبح واسوأ من ذلك ..

الضيف ـ اجل ولهذا تجدني خجلت من اناذكر لك من هوهذا الفتى؟ ولا اريد ان اذكره لك الآن لولا ان سياق الحديث الذي دار بيني وبينك سوف يضطرني الى توضيح الحقيقة . .

عضيب ـ كأن تجربتك هذه لها صلة في قصتك .

الضيف ـ اجل انها الصلة التي لا تنفصل ..

عضيب ـ لايكون الفتى ابن عمك او اخوك ..

الضيف ـ ليته هذا او ذاك ولكنه : قال الشيخ هذه الكلمة اي حرف الاستدراك ثم راح يجهش بالبكاء .. وساد النادي موجة من الصمت وبعد فترة تنهد الشيخ وقال : كنت حريصا ان لااقول ان ذلك الفتى هو ابني ..أجل كنت شديد الحرص على كتمان هذه الحقيقة ولكن الحديث الذي دائما مايكون ذا شجون هو الذي اضطرني لذلك . . لكي اثبت لك يا بني بالدليل المادي المحسوس وبالتجربة العملية بأن قضية الوراثة ليست قاعدة مطردة لا تقبل الجدل .

عضيب ـ ايكون الفتى صارع الاسد أبنا لك ؟؟

الضيف ـ اجل بل هو ابني البكر وذلك انني كنت وحيد والدي .. وكان في منزلنا فتاة يتيمة تكون ابنة عمي فقام والدي وعقد لي النكاح على ابنة

اخيه وذلك عندما كنت في سن مبكره جداً وعندما بلغت سن الخامسة عشر انجيت ذلك الفتى وحينما وقعت الحادثة كان سنه واحدا وعشرين سنة بينما كان سني ستا وثلاثين سنة .. وكان الذي يراه لا يفرق بيني وبينه من حيث الخلقة فقد كنا متشابهين بكل معنى التشابه الا بالرجولة والشجاعة فإن الفرق بيننا كما سمعته وكما رويته لك لا زيادة فيه ولا نقصان ..

عضيب – لعل اباك شجاع ..

الضيف – لا زلت يا بني متمسكاً بهذه الاسطورة .. لم يكن ابي ولا جدي من الشجعان بل ولا يعرف عن اي واحد من اسرتنا الشجاعة ..

عضيب – ان في قصتك يا شيخ بطولة في اولها وحزنا في آخرها وعبرة في نهايتها .. ولقد سمعت ان الجبان يجبن في اللحظات الحاسمة فيهرب عن صديقه او يتقاعس عن اسعاف اخيه ولكنني لم اسمع قط ان الجبن يبلغ بك درجة تعجز بها عن نجدة ابنك ولو بالكلام .. كما انني ما كنت اتخيل ان من يكون جبانا الى هذه الدرجة يمكنه ان ينجب شجاعاً كابنك .. وخير ما في قصتك هذه التي تحتوي على ثلاث مراحل كما ذكرت هي انها تحمل طابعاً آخر وهو صدق روايتك[1]

* * *

(١) وبعد فلنعد الآن الى تاريخ هذه الحادثة على وجه التقريب فاذا قلنا ان عضيب بن موعد توفي في مدة ادناها عام ١٢٨٢ واقصاها عام ١٢٦٣هـ واذا قدرنا ان راوي الحادثة عندما رواها كان عمره مائة عام واذا قدرنا ايضاً انه رواها في نادي الفارس ابن موعد قبل ان يتوفى بسنتين فقط اي عام ١٢٨٠ فتكون الحادثة وقعت قبل الرواية في مدة قدرها ٦٤ سنة ومعناه ان للحادثة الآن اي منذ عامنا الحالي ١٣٨٤ هـ حتى وقوع حدوثها ١٦٨ عاما على وجه التقريب .

كل آفة عليها من الله آفة

- ٣٧ -

هذا المثل من جملة الأمثلة التي يرددهـــا الشعبيون عندنا ، في كل مناسبة من المناسبات الطارئة التي ينطبق عليها هذا المثل قولاً وفعلاً ..

وما اكثر المناسبات التي تذكرنا دائماً وابداً بهذا المثل الذي يتلخص معناه بما يلي :

(ما من ظالم او طاغية الا وسيبتلى على طول الزمان بظالم يذيقه الظلم والطغيان اللذين كان يتسلط بهما على الغير) .

ويوشك ان يكون هذا المثل الشعبي من اقدم الأمثلة الشعبية التي سمعتهـــا وحفظتها منذ عهد الطفولة ..

واعتقد ان السبب الذى جعلني احتفظ به لا من اجل انه مثـــل واقعي فحسب ، ولكن لأنني شخصياً اكره الظلم انى كان نوعه ، وامقت اهله حيثما كانوا ، ولئن كنت اكره ان اشمت بأي انسان اصيب بكارثة من كوارث الدهر حتى ولو كان هذا الانسان من الدّ اعدائي ، فإنني لا اكره ان اشمت بالظالمين الطغاة ، فيما اذا ابتلاهم الله بقوي اذاقهم مرارة الظلم والطغيان جزاء وفاقاً لمـا قدمته ايديهم من اعمال مماثلة . وتلك ظاهرة عبر عنها الشاعر الملقب (ببدوى الجبل – الاستاذ احمد سليمان الاحمد) خير تعبير وذلك عندما فتح الجيش الالماني باريس في الحرب العالمية الثانية فأنشد هذا الشاعر السوري قصيدة كلها شماتة بفرنسا ، وعلى سبيل الاختصار اورد منها قوله :

سمعت باريس تشكو ظلم فاتحها   فهل سمعت أيا باريس شكوانا
اني لأشمت بالجبار يصرعه   طاغ ويرهقه ظلماً وعدوانا
عشرون عاماً شربنا الكأس مترعة   من الأذى فلتذوقي شربها الآن

وهكذا نجد الظالم الطاغية في كل زمان ومكان وسواء كان هذا الجبار المعتدي من بني الانسان او من عالم الحيوان ، فإنه لا بد ان يبتليه الله بمن ينتقم منه جزاء ونكالاً على ما قام به من اعتداء على الآمنين الأبرياء .

* * *

وقبل ان تنقطع الاسود من ارض العراق من مدة لا تقل عن قرن ونيف ؛ كان يوجد اسد يختلف باعتدائه عن بقية الاسود التي يتوقف اعتداؤها على افتراس البهائم من الغنم او البقر الخ .. وانما يفترس بني الانسان فأصبح لا تقبل نفسه اي غذاء الا الغذاء الذي يفترسه من بني آدم . وعندما التذ بافتراسه للانسان تمادى به الامر الى الحد الذي جعله يقتحم المنازل ويختطف السكان من بين ايدي اهليهم ، فكان من شأن ذلك ان ادخل الرعب والخوف في قلوب السكان .. فكم من ليلة وليلة هجم هذا الضرغام البطاش الغشوم ، واختطف شخصاً من السكان الآمنين المسالمين وراح يجره من عضده غير مبال ولا خائف ، وكان اعتماده على ظفره ونابه وعلى ضخامة جثته التي تختلف عن بقية الاسود ، اختلافاً كبيراً ، جعل منه وحشاً يقدم على مثل هذه العملية في كل مناسبة وبدون مناسبة . فإن لحق به احد يريد ان ينقذ فريسته منه ، فهو عند ذلك يترك الفريسة ويكر بهجوم معاكس على هذا الأخير فيثب عليه ويقطعه ارباً ..

وفي ذات ليلة وثب هذا الغضنفر كعادته على شخص يدعى «حسن النتيشه» واختطفه من بين يدي اهله على الاسلوب نفسه الذي اعتاد عليه في اعماله المتكررة ، وراح يجر فريسته بكل هدوء وامان وبدون اية مبالاة ، ولم يخطر

لهذا الوحش ببال ان هناك من يستطيع ان يفلت فريسته من يده ، والسبب كما اشرنا هو ان عمليته هذه لم تكن بكراً من نوعها بل سبق له ان قام بأعمال مماثلة من هذا النوع .. كما سبق له ايضاً ان افترس اكثر من واحد من الرجال الشجعان الذين اخذتهم النخوة ولحقوا به محاولين ان ينقذوا ضحيته من يديه ، فتكون النتيجة كما اسلفنا ان يثب على هذا الذي يحاول انقاذ الفريسة ويقده بنابه ، ثم يعود الى فريسته فيما بعد .

اصبح الفارس مفترساً

اما ان يخطر ببال الغضنفر ان يلحق به فتى شجاع كصالح الزيد [1] لا ليفلت فريسته من بين براثنه فحسب ، بل ليثب عليه كما كان يثب هو على ضحيته وليمزق اشلاءه بحسامه كما كان يمزق اشلاء فريسته بأظفاره ..، لا لم يخطر ببال الضرغام الغاشم شيء من ذلك ..

وفي الحين الذي كان ملك الوحوش متأبطاً فريسته سمع نداء يصيح به بصوت عال جهوري قائلا :

ـ قف يا كلب ..

---

(١) صالح من مدينة حائل وهو الجد المباشر للمرحوم عبد العزيز بن زيد الذي كان سفيراً للمملكة العربية السعودية في سورية ولبنان . انظر ص ٢٦١ من هذا الجزء . وقد ذهب صالح الزيد للعراق من بلاده حائل حوالي عام ١٢٤٥ هـ هو ونفر من اهالي بلاده وعلى رأس اولئك النفر عبد الله العلي الرشيد انظر ص ١٧٤ ج ١ من شيم العرب للمؤلف . وقد ذكرت الاسباب التي جعلت صالح الزيد يهاجر عن بلاده ذكرتها في الجزء الخامس من شيم العرب الذي لا زال تحت الطبع .

كان هذا الصوت يختلف عن اي صوت سمعه من بني الانسان.. صوت اشبه ما يكون بزئير الاسد الهصور ، ولذلك ترك الاسد فريسته وراح يزأر زئـــيزاً مدوياً مرعباً .. ثم عقب زئيره بزئير ثان وثالث وبعد ذلك ارتكز على قدميه كما اعتمد على يده اليسرى ثم وثب بيده اليمين محاولاً ان يهشم بها هامة الفتى صالح .. ولكن الفتى كان اسرع منه وثوبا بحسامه الذى امتشقه بسرعة خاطفة واومى به على يد المعتدي فبترهـــا ، فجمـــع الضرغام كل مـــا لديه من قوة ثم وثب ثانية بيده الثانية محاولاً ان يفتك بالفتى .. ولكن الفتى سبقه بحسامه مرة اخرى وبتر يده الثانية .. ثم بعد ذلك أجهز عليه وقطعه اربـــاً واراح اهل البلاد من شره ، واخذ بيد الشخص الذي كان ينوي الاسد افتراسه وادخله بيت اهله ، ويؤكد لي المرحوم الشيخ عبد العزيز بن زيـــد حفيد صالح بطل القصة بأن الصلة بين احفاد حسن النتيشة العراقي الذي انقذه جده صالح من افتراس الاســـد وبين احفاد صالح الزيد ظلتْ راسخة الجـــذور ومستمرة دون انقطاع وخاصة اذا زار احفاد صالح العراق في مناسبة ما ..

من ابطال السودان

- ٣٨ -

كل من لا يعرف حقيقة ساكني السودان يظن خطأ انهم ليسوا بعرب بحكم سوادبشرتهم والذي يتخيل ومما هذه النظرية سوف يخيل اليه ايضاً انني اخطأت بوضعي لهذه القصه ضمن شيم العرب وعاداتهم، ولكنني افند من يرى هذا الرأي بالمنطق الواقعي وبالعلم الأكيد الناتج عن خبرة وتجربة ودراسة لعاداتهم وذلك بحكم صلتي المباشرة بهم تلك الصلة التي مكنتني من معرفـــة اخلاق هؤلاء القوم معرفة وطيدة وذلك منذ اكثر من عشرين عاماً حينا ساقني القــدر لزيارة تلك البلاد حيث قضيت فيها فترة من الزمن كنت فيها يافعاً ..

ولا اريد ان ابعد بالقارىء الى شرح الاسباب التي قادتني الى تلك الرحلة التي مكثت بها سنتين هناك ، لأن ذلك يبعد بنا عن صميم الموضوع الذي نحن بصدد البحث فيه، والذي يطيب لي الاشارة اليه هو انني تجولت بشتى الاقطار السودانية واستوطنت بعضاً منها الامر الذي مكنني بأن ازداد خبرة واسعة وعلما راسخا بعــادات وأنساب اهل تلك البلاد وتقاليدهم القومية وعلى وجه العموم استطيع ان أؤكــد بأنهم كلهم كعرب ولم يكن هناك كثير التباين بالعادات والشيم العربية خاصة في البلاد التي لم تتأثر بالحضارة والاخلاق الاوروبية ..

وبحثنا هنا حول ساكني السودان ، . اولئك القوم الذين حسب عهدي بهم

من ابعد البلاد العربية عن التصنع بأخلاق الغربيين ومن أشد البلاد العربية تمسكا بعادات العرب فتجدهم بكرمهم وشهامتهم وشـدة جلدهم يمثلون الخلق العربي بكل معنى من معاني هذه الكلمة .. ومن ناحية تمسكهم بأنسابهم فإنه قل ان تجد واحداً منهم الا وهو يعتز بنسبه العربي ولا يتوقف اعتزازه بعروبته الى هذا الحد فحسب ، بل يذهب ويسرد شجرة نسبه فلان ابن فلان الى ان يقف عند الفضل بن العباس الهاشمي وأكثر من يعتني بهذه الناحية بعض منهم الذين تعرفت عليهم كقبيلة الجمليين والشاقيه والانقرياب والرباطـــاب الخ .. فكل هؤلاء وامثالهم تجد ان الفرد منهم يعد نسبه غيبا كما ذكرنا حتى ان يصل الى العباس عم النبي محمد ﷺ . ومن المعلوم انه ليس لديهم لغة ما عدا اللغة العربية . وما دمت قد وضعت فصلا خاصا بشجاعة الساعد فلا بد لي هنا بـأن اشير الى قصة تعبر ابلغ التعبير عن الشجاعة التي من هذا النوع ، وقبل ان اباشر بشرح القصة أحب اولا ان أشير الى ذكر عادة من عاداتهم التي تبرز بها الشجاعـــة الجسديه بصوره تكاد ان نقول عنها إنها فوق احتمال بني الانسان، بصرف النظر عن كونها عادة ليست مألوفة ولا مستحسنة ولكنها كما اسلفت تعبر تعبيراً اكيـداً عن مدى صبر وقوة وشجاعة ابطالها الماهرين بها ..

وأعني بذلك لعبة « الدلوكه » تلك التي كنت اود ان لو شاهدتها رؤيه العين لكي استطيع بأن اصفها كما رأيت لا كما سمعت .. والسبب الذي حال دون اتاحة الفرصة لرؤيتي « الدلوكه » هو انها لا تقام ولا يعتني بهـــا كما يقولون الاعند النفر (الاشو)[1] هذا وبحكم ان اقامتي كانت في المدن فإنه تعذر عليّ رؤية هذه المسرحية الشعبية وتعريف هذه اللعبة كما يلي :

(١) الاشو يعني القرويين .

هذه الدلوكه السودانية .

يجتمع شباب القرية ونساؤها في موضع ما ، وفي مناسبة الافراح كالاعياد او الزواج ، ومن ثم تأتي إمرأة مسنة وتقرع طبلا كبيراً وتلحن قصيدة شعبية من القصائد التي تنشد في مثل هذه المناسبة . وقد كنت احفظ بعضاً من القصائد القوميـة التي من هذا النوع ولكن خانتني الذاكرة لطول العهد . ولم اذكر الا بيتا واحداً سوف آتي به في مكانه المناسب ، المقصود انه بعدما يدق الطبـل وتنشد صاحبة الطبل الاغاني الشعبية عند ذلك يأتي الفتيان والفتيات ويحيطون بصاحبة الطبل وعندئذ تأتي فتاة وتتوسط المسرح وتظل ترقص واذا قضت فترة اختارت شاباً من الحاضرين وذهبت نحوه حتى اذا دنت منه قامت بحركة غرامية توحي بأنها تريد ان تقبل الفتي بينما هي لا تعدو من كونها تميل عليه برأسها دون أن تمسه قائلة الكلمة التالية (كش) وهذه العملية يطلق عليـها اسم (شبال) حسب الاصطلاح فيقال عندهم فلان أعطى (شبال) والشاب الذي تمنحه الفتاة (الشبال) يتحتم عليه ان يقف وسط المسرح امـام الحفل وقفة الشجاع فيهز زنده ثم يضرب الارض بقدمه قائلا: (انا خو البنوت) اي (انا أخو الفتيات) فيأتيه بعد ذلك شاب آخر حاملا سوطاً بيده فيضربه على ظهره شريطة ان يكون المضروب عاري الظهر وليس على ظهره أي شيء يقيه الضرب ما عدا ما يستر به عورته .

والجدير بالملاحظة ان هذا المضروب سوف يقتص من ضاربه في تلك الساعة او بعدها بقدر عدد الاسواط التي يضربه بها ، فالقضية أشبـه ما تكون بالمبارزة ، فاذا كان المضروب الاخير استطاع ان يتحمل عـدد الاسواط التي

ضربه بها الاول فيكون امتياز البطولة امام هذا الحفل له لا للضارب الاول ، واذا اخذ التفوق على نده اصبح له مكانة محترمة بين بني قومه الى أن يأتيه من يفوقه ، والثاني هذا سوف ينال الاحترام حتى يأتي من يعلو عليه وهكذا دواليك الى ان تصل الاسطورة الى ما يسمى بفتوة (الحي) او شيء بهذا المعنى . وما من قرية الا ويكون فيها شخص متفوق بصبره واحتماله للسياط -- بصورة لايضارعه بها احد من فتيان الحي . فيكون هذا كالحصان الذي يأخذ جائزة السباق فيظل يتمتع بهذه الصفة الى ان يأتيه من يسمو عليه ..

ولا بد لي من أن اشير الى البيت الذي تنشده ضاربة الطبل فتقول :

أخوان البنوت القـــده ظمينانه

وين انتم يا مسقين اكفانـــه

شرح المعنى : تقول ان الاسواط ظمآنه ولا يسقيها الا اجساد الفتيان الشجعان فأين انتم ايها الفتيان ؟ ...

يأكل طعام الخمسين ويصرع الخمسين !

وعندما كنت في السودان روى لي شخص يقوم بعمل مهندس بفن النجارة يدعى (عالم طه) حادثة بطولة قام بها فتى سوداني اسمه محمد عابد يقول طه : انه سافر ضمن بعثة من رفاقه بأمر من حكومة الانتداب الانجليزية وقتذاك برحلة الى احدى الجهات من السودان التي ضاع عن ذاكرتي موضعها ، وكان برأس تلك البعثة شخص انجليزي وعدد هذه البعثة يقارب خمسين شخصا بما فيهم

من مستخدمين وعمال ، وبينما كانوا يسيرون في أرض صحراوية وجدوا شاة ضائعة فكلفوا احد العمال بذبحها وطبخها ، والعامل الذي وكل بطبخها هـو المرافق الخاص لصاحب الرواية المدعو محمد عابد ، وكان محمد معروفا بين العمال بالصدق والامانة والاستقامة وقوة البنية ، وكان السبب لاختيارهم له هو ما يعتقدونه بأنه سوف ينهي طبخ الشاة بوقت اسرع مما ينهيه به غيره من زملائه ، وقد كان الفتى عند حسن ظنهم به من حيث قوته وسرعة انضاجه للذبيحة ، ولكنهم اخطأوا بمعرفتهم لشخصه ، فكأنهم كانوا كمن يودع الشاة عند الذئب الجائع ، وذلك ان الفتى التهم الشاة بكاملها بدون شعور منه حيث كان كلما بين لحظة واخرى يتناول قطعة من لحم الشاة التي في القدر على النار ويلتهمها بقصد ان يعرف مدى نضوجها ، وهكذا كان يفعل حتى تقلص لحم الشاة ولم يبق منه الا ما هو اقل من ربعه . . وقد كان يأخذ القطعة من القدر المغطى ثم يعيد الغطاء بدون ان ينظر ماذا بقي من اللحم حتى اذا ايقن ان اللحم نضج نزل القدر حتى يبرد وينادي رفاقه ، ولكنه عندما كشف الغطاء وجد القدر فارغا من لحم الشاة ولم يبق به الا كما ذكرنا آنفاً اي الشيء الذي يقل عن ربع لحم الذبيحة ، فازداد دهشة وخجلا فكان مصدر دهشته هو انه استغرب كيف انه التهم هذه الشاة في الحين الذي يشعر انه جائع وكأنه لم يدخل جوفه لقمة واحدة كما انه كان خجلاً من رفاقه فلا يعلم بماذا يعتذر به منهم في عمليته هذه ..

فترك الفتى قدره مكشوفا وراح يشرح لمعلمه القضية كما كانت ولم يكن لدى معلمه من الحيلة الا ان قال له عليك ان تجمع رجال القافلة جميعهم وتشرح لهم الامر وتطلب منهم ان يسامحوك .. فذهب الفتى ونادى رجال القافلة فحضروا

جميعا اعتقادا منهم ان الفتى انتهى من طبخ الشاة وانه ينوي أن يقسم عليهم اللحم كل يناوله بسهمه من الشاة .. ولكنهم ادركوا ان اعتقادهم كان خاطئا وذلك عندما وقف الفتى وقال :

– باستطاعتي أيها الاخوان ان اقول لكم انني بعدما انضجت الشاة تركتها في القدر وذهبت لقضاء حاجة ما وعندما عدت وجدت الشاة مختلسة ولم يبق منها الا شيء قليل .. كان باستطاعتي ايها الرفـــاق ان اقول لـكم ذلك وانتم سوف تصدقونني طبعا نظراً لما تعرفونه عني من صدق الحــديث ولكن من الحق والصدق ان اصارحكم بالحقيقة وان كانت هذه الحقيقة مخجلة لي وقـــد لايرضي عنها بعضكم فأقول اسمحوا لي بأن اعرفـكم عن نفسي اولا : فـــانا فتى بقدر ما وهبني الله من الصحة وقوة البنية بقدر ما كنت اكولا .. لقد كنت التهم الخروف الكبير الذي هو اكبر من شاتـكم هذه كنت آكله بمفردي في الحين الذي لم اكن جائعا كجوعي هذا اليوم .. وهذا ما جعلني آكل ثلاثـــة ارباع الشاة بدون ان اشعر وكل ما في الامر انني بين لحظـــة واخرى اذهب وآخذ قطعة من لحم الشاة وهي فوق النار وفي وسط القدر لأنظر هل نضجت ام لا ؟... وبدون شعور مني أكلت ثلاثة ارباع الشاة ولم اشعر بعمليتي هذه المخجلة الا بعدما نزلت القدر وكشفت الغطاء عنه عند ذلك عرفت ما وقع مني وازيدكم تأكيداً بأنني اكلت ما اكلت وانا لازلت اشعر بالجوع فكأنني لم اتناول الطعام قطعيا ..

يقول الراوي طه انه بعدما انتهى الفتى من حديثه انقسمت القـــافلة الى قسمين : قسم منهم اقتنع بحديث الفتى وسمح عنه وقسم آخر اصر على انه يجب

ان يطرح ويضرب بالسياط تأديبا له على فعلته هذه .. وكان الاكثرية من رجال القافلة الذين يرون الرأي الاخير ، وعندما رأى الفتى عزم الاكثرية على عقابه والتنكيل به نزح بعيدا عنهم وناشدهم الله بأن يتركوه وشأنه ولكن القوم لم يصغوا لما يقول .. وأخيرا حذرهم بل وهددهم عما سيلقونه منه فيما اذا اقدموا على عملهم هذا ، وما كان من تحذيره لهم الا ان تمادوا باصرارهم وهجموا عليه جميعا فخرج من بينهم كالسهم ثم كر عليهم وبدأ يتناول الذين كانوا يحرضونهم والحدا واحدا حتى اذا قبض احدا منهم رفعه بين يديه ثم ضرب به الارض ضربة تركت ذعرا ورعباً في قلوبهم جميعا . وأخيرا لاذوا جميعا بالفرار وبعد ذلك عاد والتهم بقية ما تبقي من الشاة .

هذا وقد واصلت القافله سيرها الحثيث حتى وصلوا الى قرية كبيرة لااذكر اسمها ومن الصدف العجيبة ان وجد رجال هذه القافلة في تلك القرية مسرحية (الدلوكه) فكانوا بطبيعة حالهم كقادمين من رحلة صحراوية بحاجة الى ان يرفهوا عن انفسهم جميعاً ليتسلوا بمشاهدة هذه المسرحية الشعبية بما فيهم آكل الشاة محمد الذي سر سرورا يختلف عن سرور رفاقه ، فهم ارادوا بذهابهم ان يرفهوا عن انفهسم ويتسلوا ولكنه اراد ان يبرهن لرفاقه مدى ما يتمتع به من بطولة في ميدان الدلوكة الذي هو موضع امتحان بصورة تكون اكثر مما رأوه وشاهدوه وقبل ان يذهب الى المسرح مر عليهم وقال :

– سوف أذهب الى الدلوكة فأود ان تأتوا الآن لتنظروا الى موقف صاحبكم لعلكم ترون مني ما يبيض وجهكم امام اهل هذه القرية لكي تغفروا لي خطيئتي الاولى التي وقعت مني بدون قصد وأعني بها اكلي للشاة كما تغفرون لي

خطيئتي الثانية التي أرغمني بعض اخواني عفا الله عنهم على ارتكابها كدفاع عن النفس ، بعد هذه الكلمات ذهب الفتى الى المسرح كما تبعه رفاقه بشوق ورغبة لينظروا ماذا لدى فتاهم هذا من البطولة بعد حديثه هذا ..

وما ان وصل المسرح وتوسط منه حتى قام بالحركات التي تدل على ان صاحبها يريد ان يدخل نفسه في ميدان المنازلة وقد كان الفتى على جانب كبير من الوسامة والجسامة معا كما انه غريب لم يسبق لمن بالحفل من اهل القرية ان رأوه قبل هذه المرة ، فكل هذه العوامل من شأنها ان تجمل انظار من بالحفل تشرئب نحوه كما انها خليقة ان تشغل عقل فتاة المسرح الراقصة مما يجعلها تنساق اليه بشوق وغرام ... وهذا ما حصل فعلا ، فقد ذهبت الفتاة اليه حتى اذا دنت منه اعطته (الشبال) فقام الفتى بعملية الروتين المألوف حيث توسط المسرح ليدفع ثمن هذا « الشبال » ولما كان الفتى كما هو معروف غريبا عن أهل القرية ، ومن عادة الغريب الذي لا يعرف مدى ما لديه من قدرة على الجلد والشجاعة ان يكون مهيوبا يضاف الى ذلك ان للفتى من مظاهر الرجولة والهيبه ما يجعل له هيبة وخوفا في نفسيةمن يريد ان ينازله ، فقد تردد ان يقدم علىمنازلته من فتيان القرية اي واحد منهم .. وحسب العادات الجارية في حالة كهذه أي انه اذا جاء للبلاد غريب لايعرفون شيئا عن مدى بطولته في هذا الميدان وتخلى فتيان البلاد عن منازلته وتأزم الموقف ، عند ذلك يتحتم على فتوة هذه البلاد انينازله هو بنفسه ولهذا اضطر الفتوة صاحب الجد الذي لاينافسه أحد عليه في هذه البلاد اضطر ان يأخذ السوط ويقبل عليه قائلا الكلمة المألوفة :

– شبال بشره [1]

فأجابـه الفتي الغريب (ابوالله بشره [1]) ثم ضرب الارض برجـــله ، ضربـــة احدثت رعبا في قلوب اهــل القرية جميعا .

وبعد ذلك ناوله فتوة البلاد سوطا بكل ما اوتي من القوة ولكن لم يكن لهذه الضربة أي اثر على المضروب .

واحد كألف والف كواحد ! !

ثم ضربه ثانية وثالثة وكان في كل ضربة من ضرباته يستعمل اقصى ما لديه من القوة ولكنه رغم ذلك لم يكن لضرباته هذه ادنى تأثير بل كأنـــه يضرب جبـــلا على الرغم من ان هذا الفتوة عرف بأنه لم يضرب انسانا بسوطه الا صرعه ...

ولما كانت الاصطلاحات كما ذكرنا تقضي انيسدد المضروب للضارب في حينه عــدد الاسواط التي ضرب بهــا سواء قلت ام كثرت ، فقد وجد فتوة البلاد نفسه أن من الحكمة ان لايزيد عن هذه الاسواط الثلاثة ليقينه ان كل ضربة يزيدها سوف تكون على حسابه ، ولذلك طرح السوط من يده ووقف عند هذا الحد ليحتفظ لنفسه بشيء من الكرامة ، ولكن قرينه لم يتركه يحتفظ بكرامته امام الحفل بل صرخ به قائلا :

---

(١) اي انك سوف تدفع ثمن هذه العملية التي قامت بها الفتاة .

(٢) انني مقدم على ذلك غير هائب .

– ألست فتوة البلاد مالك ادبرت ؟ انني اتحداك امام هذا الحفل بأن تزيد من اسواطك هذه الباردة ؟ ..

ثم واصل حديثه الى ان قال يجب عليك احد الامرين اما ان تعود وتزيدني او ان تعترف على نفسك بأنك تركتني رحمة بنفسك ورأفة بها ، ثم عليك ان تعلم بأن الصراع بيني وبينك لم يكن صراع شخصين عاديين بل صراع فتـــوة وفتوة فان غلبتني فلا تخش بعد ذلك منافسة اي فتوة بعـــدي وان غلبتك فسوف تفقد لقب فتوة البلاد ..

كان لهذا الحديث الموجه من الفتى الغريب الى الفتوة المعروف اثر مزعج ، كما انه اثار انتباه جميـــع من في المسرح وجعلهم يزدادون اعجابا بالفتى الغريب وظلوا جميعا ينتظرون النتيجة بفارغ الصبر ..

هذا وقد انبعث المسرح من جديد وقامت تترنم صاحبة الدلوكة بصوتهـــا المطرب وجاءت فتاة المسرح ترقص على نغمات المطربة وموسيقى الدلوكة وظلت الفتاة ترقص وتتكسر باطرافها فكأن جسدها الغض الناعم لحم لا عظام فيه حتى اذا دنت من فتوة البلاد مالت عليه كغصن الموز ، وناولته – الشبال – المعلوم أي القبلة الموهومة فقفز الفتوة وتوسط المسرح واقبل نحوه الفتى الغريب وهز السوط بوجهه قائلا العبارة المألوفة :

– الشبال بشره ، واجابه هذا بالجواب الذي يقال عادة بمثل هذه الحالة :

– اي والله بشره كما مثل الحركات المعتادة سالفة الذكر .

واول عملية قام بها الفتى الغريب هى ان اتجه الى من بالحفل قائلا :

ـ اعاهدكم الله لئن تآمر علي احد وشق الطبل قاصدا افساد المسرح قبل ان انهي عدد الاسواط الثلاثة التي سوف اضرب بها الفتوة كما ضربني فانني سوف ارقع شق الطبل من جسد الفتوة نفسه بمديتي هذه ، مشيرا الى المدية التي يضعها الشعبيون السودانيون في الذراع الايمن .

كأنني ارى علامات الاستفهام تترامى علي من القراء مستفسرين عن معنى هذا اللغز ، ومعناه هو ان العادة المتبعة تقضي بأنه عندما تطغى بطولة الضارب على المضروب وتنهار قوة المضروب قبل ان يستوفي الاخير عدد الاسواط التي ضرب بها من قبل عند ذلك يأتي احد اقارب او اصدقاء المضروب ويشق الطبل الذي هو مدار نشاط المسرح والغاية من ذلك هو افساد المسرح من اساسه ..

هذا وقد ناول الفتى الغريب فتوة البلاد السوط الاول وشاء ان يرتمي الفتوة ارضا من شدة الضربة الاولى ولكنه استرد شجاعته وثبت بعدما ظل يرتعش وظهره ينزف دما ثم ضربه الثانية فسقط على الارض فهجم اخوه على الطبل الضارب قاصدا ان يشق الطبل لكي تفسد المسرحية قبل ان يناوله اخاه السوط الثالث وعندئذ وثب الفتى الغريب على هذا الذي اراد ان يفسد للطبل قبل ان يستوفي حقه كامـــلا ، وهنالك عند ذلـــك هجم من بالحفل من شباب القرية على الفتى الغريب حيث اخذتهم النعرة القبلية على فتوتهم الذي وقع صريعا من ضربه وكان قصد اهل القرية ان يستخلصوا المدية من يده ثم يشبعونه ضرباً فيما اذا لم يستسلم ..

ويؤكد راوي الحادثة المهندس عـــالم طه ان فتاهم عندما رأى كل من في المسرح من رجال ونساء هجموا عليه وشاءوا ان يتمكنوا منه عند ذلك هجم الفتي على ادنى الجهات الموالية حاملاً السوط بيد والمـدية بيد فهزم كل من وقف بوجهه وعندما فك الحصار الذي كان مطوقاً به كر مرة ثانية بهجوم معاكس

على البقية فلم يقف بوجهه احد من رجال القرية فحسب بل حتى رفاقه انهزموا عن وجهه .

ويزيدني المهندس عالم تأكيداً بأن رئيس القافلة الانجليزي اعجب كثيراً بالفتى محمد وراح يحاول ان يستميله لكي يكون مرافقاً له بصورة خاصة ولم يترك وسيلة من وسائل الاغراء للفتى الا استعملها ولكن البطل صارح الانكليزي قـــائلا :

– لو خيّرت بين الموت او البقاء في معيتك لفضلت الأمر الأول .



شجاعته بساعده كشجاعته في الهيجاء

- ٣٩ -

ربمـــا يكون لدى انسان ما شجاعة أدبية ، ولو لم يكن لديه شجاعه في الحروب ، او يكون لديه شجاعة في قلبه وساعده ، ولم يكن لديـه شجاعة في عقله وتفكيره .. او يكون العكس من هذا وذاك .. والجمع بين هذه الصفات بصورة كاملة قد يكون من المستحيل .. اما الجمع بين صفتين متجانستين كالجمـع مثلا بـــين الشجاعة الفكرية والشجاعة الحربية ، او الجمع بـــين شجاعة القلب وشجاعة الساعد ، فالجمع بين هذه وتلك قـد لا يكون متعذراً كتعذره بـــين الصفات السالفة الذكر ..

وبطل قصتنا هذه هو سويلم الشعلان[١] ذلك الرجل الذي جمع بـين شجاعة الحروب كفارس له مواقف معروفة في الهيجـــاء ، كما اضاف اليهـا شجاعته بساعده وقلبه وذلك في الحادثة الآتية :

كان ذلك في عام ١٣٦٦هـ عندما كنت طالباً في الطائف في مـــدرسة دار التوحيد الثانوية ، وقد بلغنا وقتها ان هناك ذئباً مفترساً في قرية الحوية[٢] وان

(١) انظر ص ٨٥ من هذا الجزء . وصفحة .... ج ٣ من شيم العرب للمؤلف .
(٢) الحوية هي القرية التي فيها مطار الطائف .

هذا الذئب بلغ استهتاره بالسكان درجة جعلته لا يبالي باقتحام بيوتهم واختطاف فريستة من الغنم من بين ايدى الاهالي .. وقد تكررت عمليته هذه ، وفي ذات ليلة هجم الذئب المذكور على منزل سويلم الشعلان عندمـا كان يقيم في (الحوية) . قاصداً ان ينهب عنزاً من الغنم الموجودة عند صاحب المنزل .

ويروي لي سويلم رحمه الله كيفية هجوم الذئب على منزله فيقول :

- بينما كنت وزوجتي وأطفالي نغط في سبات عميق في بداية الثلث الاخير من الليل .. وفي تلك اللحظة سمعنـا دوي صوت ثقيـلا شعرنا بأنه سقط في البيت ، وقد احدث سقوط هذا الشيء المفاجيء اثراً مزعجاً كان من شأنـه ان استيقظنا جميعاً وذهبنا للنظر ما الأمر ، وسرعان ما بدا لنا الامر غير مجهول وذلك عندما رأينا الذئب يتجول بين الغنم الموجودة في جانب البيت .

ويقول الراوي: ما ان رأى الأطفال النساء والذئب حتى علا ضجيجهم وصراخهم بصورة تدعو الى الرثاء، وعند ذلك رأيت ان خير وسيلة اتخذها مبدئياً لمواجهة المشكلة هي انني جمعت العائلة كلها من نساء واطفال وأدخلتهم في احدى غرف البيت وأقفلت عليهم باب الغرفة ، ثم بعد ذلك ذهبت لانظر ماذا فعل الذئب بالغنم ، وعندها وجدته واقفا بين الغنم دون ان يقوم بشيء عملي نحوهـا .. فصحت به فترك الغنم وراح مدبراً قاصـداً ان يخرج من الطريق الذي دخل منه .. ولكن المشكلة هى ان الجدار ألذي يحيط بالبيت والذي قفز منه الذئب

كانت ارضه مرتفعة من الخارج بصورة مكنت الذئب من القفز منه بدون كلفة بينما كانت ارض البيت من الداخل منخفضة فيكون الجدار بطبيعة الحال مرتفعاً الامر الذي جعل عودة الذئب منه متعذرة ..

ويمضي سويلم في قصته فيقول : عندما وجد الذئب انه لا يستطيع الخروج من المكان الذي دخل منه عند ذلك ذهب يحاول الخروج من الباب الخارجي للبيت ولكن هذا الباب كان مقفلا ، وعندما وجده موصداً في وجهه وان لا سبيل له للخروج من المأزق الذي ادخل نفسه فيه ، عند ذلك جمع نفسه وأقبل علي ينوي الفتك بي ، ويقف سويلم عند هذه المرحلة فيقول :

(كنت شعرت في تلك اللحظة ان الذئب عندما يتعذر عليه الخروج فانه سوف يهجم عليّ لا محالة لا محبة بالافتراس فحسب بل كدفاع عن نفسه لان القضية بالنسبة اليه أصبحت بحكم الامر الواقع قضية حياة او موت .. وهذا الشعور جعلني افكر بالسلاح الذي اقاوم به هذا الوحش ، ففكرت بالبندقية على الفور ، ولكن هذه البندقية في وسط الغرفة التي اقفلتها على الأبناء ولم اذكر الان اين يكون مفتاحها ، كما انه لم يكن لدي متسع من الوقت يجعلني انقب عن المكان الذي فيه المفتاح ..

واسترسل الراوي في سرد قصته الى ان قال : وعندما أقبل عليّ هذا الوحش فاتحاً فاه كنت في لباس النوم اعزل من أي سلاح الا انني في تلك اللحظة وقعت عيني على العصا التي يحمل عليها الساقي (صفيحتي) الماء فاختطفتها ،

وعلى الفور اهويت بها على الوحش بكل مالدي من القوة فخر صريعاً فوراً ..
وقد جاءت الاصابة لحسن الحظ على هامتـه فهشمتها بصورة اشبه ما تكون
بطلقة نارية فتت رأسه ومزقته ارباً [1] .).

***

---

١ ومما يحملنا نؤمن بأن شجاعة قلب سويلم كشجاعته بساعده انه لم تكن الاولى اعظم مما
يحملنا نؤمن بذلك وهو ان الرجل وقتهـا كان في بداية العقد السابع من عمره ومع ذلك استطاع
بضربة واحدة ان يقضي على هذا الوحش المفترس .

بطل القسطنطينية الذي اهمله التاريخ

- ٤٠ -

يوشك ان تكون هوايتي علم التاريخ وحرصي الشديد على الالمام بكل ما يمكنني ان اعرفه عن تاريخ امتي العربية بصورة خاصة وتاريخ الامم الاخرى بالمفهوم العام الشامل طاغيين على كياني بكل مـا تشير اليه هـذه الكلمة من معنى .

كما ان هيامي بالاطلاع على تاريخ الاسر التي اتيح لرجالها ان يتولوا دست الحكم باسم الملكية او الامبراطورية والسلطنة الخ .. ورغبتي بمعرفة تاريخ الافراد الذين ابرزتهم مواهبهم من العدم والخمول الى ذيوع الصيت وشيوع الذكر وعالم الخلود ، لا يقل شأناً عن رغبتي بالاطلاع على تاريخ الشعوب والامم .

وكان الامر طبيعياً ان اسعى ما امكنني السعي الى الوصول نحو معرفـة تاريخ اسرة بني عثمان بصورة خاصة وتاريخ الشعب التركي بشكل عام ، تلك الاسرة التي مهما قيل عنها من صواب وشطط فاننا لا نستطيـع ان ننكر بأنها اول اسرة في التاريخ استطاعت ان تصل اسمها اتصالا لا ينفصل باسم عشرات الملايين من البشر الذين اقاموا الدنيا واقعدوها حقبة طويلة من الزمان ، وذلك الشعب (العثماني) الذي تصدى لقهر ثمان واربعين حملة صليبية متحدة في هدفها وعقيدتها ، وان اختلفت في بيئتها ولغتها ومناخها ، كمـا استطاع ايضاً في خلال ستة قرون ونصف ان يحمي البلاد المقدسة من كل معتد وغاصب .

ان اسرة من هذا الطراز وشعباً بهذه الصفة لجديرانتان يخلقا في نفسية اي مشتاق لعلم التاريـخ حافزاً يحدوه الى الوقوف على معرفة تاريخها الحافل بالعبر والغني بالعظات، والطافح بالاحداث .

وهذا مما جعلني ابذل أقصى ما لدى من التنقيب عن تاريـخ هذه الامة ، فلم اترك مكتبة من المكتبات العربية التي هيأت لي الفرصه ، الاتصال بها ، ما لم ابحث فيها عن ضالتي المنشودة ، وكان نصيبي الافلاس ، وبالتالي ذهبت اسأل ذوي الاختصاص من الاصدقاء ، علّي اجد عندهم ما اريـــد ، وكانت فرصة سعيدة عندما وجدت في مكتبة الاستاذ ناصر المنقور في مكة عام ١٣٧٧ هـ ١٩٥٧ م كتاباً بعنوان (التحفة الحليمية في تاريـخ الدولة العلية) مطبوعـاً في القاهرة في ١٣٢٣ هـ ١٩٠٥ م لمؤلفه ابراهيم حليم الشركسي الاصل ، ولئن كان الكتاب مختصراً وعلى ورق لا يشجع القارىء، الا انه لا يخلو من الفائدة بل قد يكون رغم ايجازه شاملا لسرد جميـع الوقائع والاحداث والحملات الصليبية التي واجهتها الدولة العثمانية بكل بسالة ورباطة جأش ، وذلك منذ عـــام ٧٥٦ هـ وحتى السنة التي طبع بها المؤلف كتابه في ١٣٢٣ هـ ١٩٠٩ م .

وفي اثناء مطالعتي البحث الخاص باستيلاء السلطان محمـــد الفاتح على مدينة القسطنطينية (استنبول) وقع نظري على حادثة بل بطولة خارقة قام بها عربي من جنود السلطان في المعركة التي فتح فيها القسطنطينية ، ولئن كانت تلك الحادثة من اهم الحوادث في فتح القسطنطينية ذلك الفتح الذي غير مجرى التاريخ، فان المؤلف مع الأسف لم يمر على ذكرها بادنى شيء من العبارات التي تتناسب وجلالة قدرها ، اللهم الا انه ذكرها ذكرا عابراً ، بل وفارغاً من كل معنى من المعاني التي تتناسب وشجاعة فاعلها ،وقد جاءت عبارة المؤلف نصاً حرفياً على النحو الاتي :

« وفي يوم الثلاثاء عشرين جمادي الاولى من السنة المذكورة أي ٨٥٧ هـ في الرابع والخمسين يوماً من المحاصرة هجم السلطان [١] بعساكره على الاستانة فدخلوها وخرج الامبراطور [٢] من سراية تكفور بعساكره خاصة للمدافعة وبيده السيد مسلول فوجد نفراً عربياً مجروحاً فاراد قطع رأسه فسبقه العربي الجريح بضربة بسيفه فقطع بها رأسه فتم الفتح » .

هذه العبارات بنصها الحرفي اوردها المؤلف ، بدون ان يذكر اسم العربي القاتل للامبراطور ، والذي يعتبر قتله له من اهم الاسباب التي سهلت فتح القسطنطينية التي كانت للصليبيين وقتذاك (كموسكو – لروسيا) « وكلندن للانكليز » بل وبدون ان يذكر الولاية التي ينتسب اليها البطل او القرية التي خلق فيها ، فيما اذا كان قروياً او القبيلة التي يتصل نسبه بها فيما اذا كان قبلياً ، وكلما في الامر انه ذكره ذكراً عابراً على الصيغة التي وردت آنفاً ، ولست ادري أهل كان الاهمال لاسم هذا الجندي الباسل جاء من المؤلف ؟ .. ام من المؤلفين الاتراك القدامى الذين كما ذكر المؤلف في مقدمة كتابه بأنه نقله عنهم؟..

والذي يخيل اليّ ان الاسباب التي حالت دون تخليد اسم بطل القسطنطينية تأتي كما يلي :

اولا – ان العساكر التي حاصرت القسطنطينيه وان كانت خليطاً من الجنود المسلمين من الترك والعرب والاكراد والشركس الخ .. فان الاكثرية ولا شك كانت للاتراك كما ان القيادة ايضاً للسلطان التركي .. وهذا مما يجعل اي عمل يقوم به الافراد الاقليه يضيع ذكره وتدرس معالمه وتختفي آثاره بين عدد القوم الذين تتألف منهم الاكثرية والقيادة معاً ، كما اختفى ذكر البطولة التي

---

(١) السلطان هو محمد الفاتح ابن السلطان مراد الثاني .

(٢) الامبراطور هو قسطنطين الحادي عشر آخر الاباطرة البيزنطيين .

قام بها نفر من الجنود السعوديين سنة ١٣٤٨ هـ – ١٩٤٨ م في حرب فلسطين لا لانهم اقلية بجانب الجيش المصري فحسب بـــل لان القيادة كانت ايضاً لاخواننا المصريين .

ثانياً – هو ان المؤرخين الذين كتبوا تاريخ تلك الحقبة من الزمان لا يخلو الامر من ان يكونوا من احد النوعين ، فاما ان يكونوا من الأتراك ومعناه انهم كتبوه باللغة التركية وظل ذلك التاريخ على ما كان عليـــه بدون ان ينقل الى اللغة العربية . وقد يكون هناك من المؤرخين من ذكر اسم البطل بلغة قومـه اي التركية . وظل الاسم مغموراً في طي الاهمال بسبب عدم ترجمته الى اللغـة العربية .

ثالثا – هو انه قد يكون كاتب التاريخ في تلك الفترة من احـــد الكتاب الاجانب الغربيين الذين تطوعوا لكتابة تاريخ العصور الوسطى التي تعتبر حسب اصطلاح المؤرخين من القرن السادس الى القرن الثالث عشر الميلادي، فالمؤرخون اما ان يكونوا كتبوا تاريخهم باللغة الفرنسية اذا كان المؤرخ فرنسياً او باللغـــة الانجليزية اذا كان انجليزياً، ومن بدهيات الامور ان المؤرخ الذي هو مـــن احدى الطائفتين ، قد لا يحاول ان يسعى جاهداً من اجل ان يصل الى معرفـة اسم او كنية ذلك البطل العربي الذي يشفران في قتله لقسطنطين الحـادي عشر قتلا لآماله العدوانية واهدافه الاجرامية، بل قتلا وقضاء مبرما لغزوات اسلافه الصليبيين .

اجل إن الكاتب الذي من إحدى هاتين الفئتين سوف لا يحاول بقدر ما يحاول ذلك المؤرخ الانجليزي :(هـ. ا. ل. فشر)تمجيد واطراء الامبراطور قسطنطين الحادي عشر في كتابه (تاريخ اوروبا والعصور الوسطى – الطبعة الثالثة : ترجمة مصطفي زيادة والسيد الباز العريني ص ٤٥٩ وقد اطرى المؤلف قسطنطين السالف الذكر بالعبارات التي جاء نصها الحرفي كما يلي :

« وفي هذه السنة الحرجة في خاتمـــة الامبراطورية البيزنطية سطـــع اسم قسطنطين الحادي عشر في سماء البطولة ، وبرهن هذا الامبراطور الى حل نصفه بين العثمانيين والبيزنطيين[1] او الجود بالنفس في حومة الدفاع عن القسطنطينية ».

وفي صفحة ٤٦٠ قال المؤلف ابن التايعس ما يلي : « ومعنى هذا كله ان التقصير المسيحي هو الذي جعل القسطنطينية تخور وتمور وتتهدم تحت ضربات العثمانيين وجعل آخر الاباطرة البيزنطيين يخر صريعاً شريفاً والامبراطورية نفسها تئن انين الموت في اليوم التاسع والعشرين من شهر مايو سنـة ١٤٥٣ م الخ » ...

نحن لا نلوم المؤلف الاستاذ هـ. ا. ل. فيشر على اطرائه لابن ملته الامبراطور قسطنطين وان يكن مصرعه بالصفة التي قتله بها العربي الجريح لا يستحق ان يقال عنه صريع شرف لانه جاء قاصداً ان يجهز على جريح مثخن بالجروح لا ان يبـــارز فارساً سليم القوى وجها لوجه . وقتل الجريـــح في عالم الخلق الحربي الاسلامـــي والانساني مما يعبّر أسوأ التعبير عن حقارة ونذالة نفسية القاتل ، ولكنني الوم المؤرخ التركي المسلم الذي اهمل اسم عربينا بطل القسطنطينية وهو تربطه به رابطة الروح التي لا تقل وثوقا من الرابطة التي تربط الاستاذ (هـ. ا. ل. فشر) بالامبراطور قسطنطين اذا لم تكن اعمق جـذوراً وارسخ اصولا ولا سيا في تلك الحقبة من الزمان عندما كانت الرابطة الروحية بين العربي المســـلم والتركي المسلم أمتن وأرسخ من رابطة الدم والنسب .

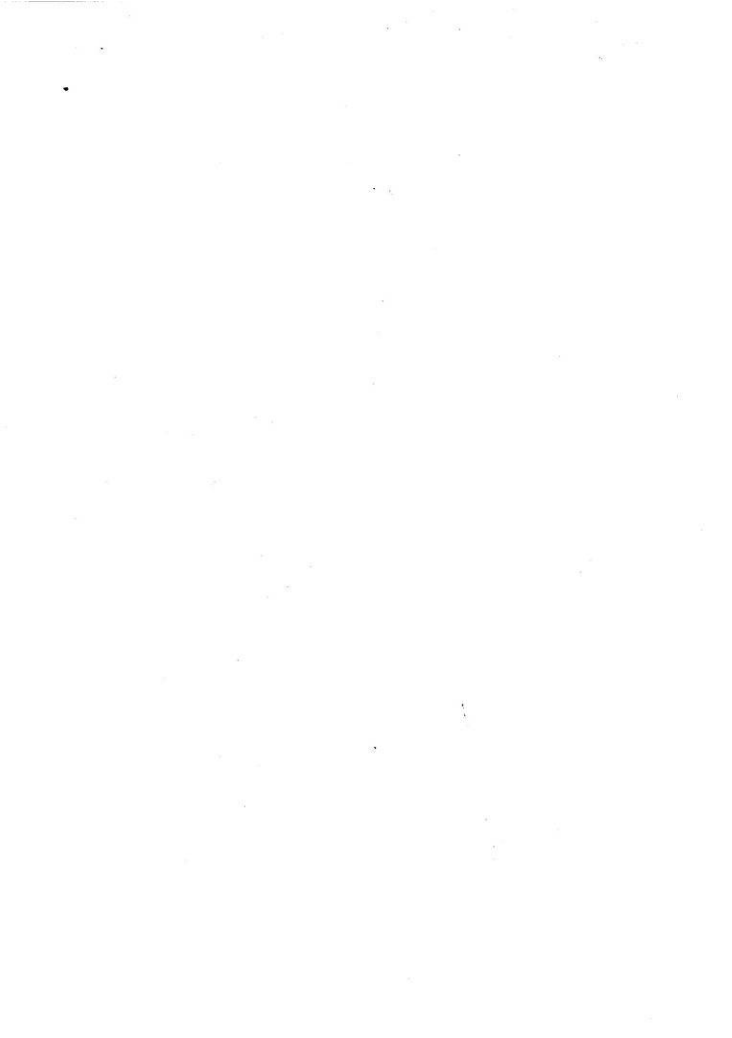
والذي تجدر اليه الإشارة هو انني خلال اقامتي في تركيا في مفوضية حكومة وطني ، سألت اكثر من واحد من مثقفي الاتراك الذين سنحت لي الفرصـــة بالاتصال بهم وخاصة الذين يقال عنهم بأن لهم الماما في علم التاريخ . ويؤسفني اني لم اجد عند كل من اتصلت به ادنى علم عما اسأل عنه . اللهم الا انـــه في ذات يوم وفي مناسبة ما زرت الإستاذ قاسم جوليك وزير المواصلات سابقـــا

(١) هذه الجملة التي بين قوسين نقلتها من كتاب المؤلف المذكور كما وردت بمعناها المبهم »

والممثل لحكومته التركية في المؤتمرات الدولية ، ولما كان الرجل غزير العلم ويحتفظ بمكتبة تحتوي على آلاف الكتب النفسية فقد طاب لي وقتها ان اسأله عما يعرفه عن قصة بطل القسطنطينية فأجاب بأن القصة لم تكن غريبة عليه ، بل أثبت صحتها من حيث المبدأ ولكنه قال : لا يذكر اسم العربي القاتل للامبراطور كما وعدني (جليك) بأنه سوف يتعقب الموضوع ويفتش عنه في المراجع التاريخية ويفيدني مفصلا فيما بعد . ولكنه للاسف حتى كتابة هذه الاسطر لم يفدني بالرغم من انني اجتمعت به عدة مرات وسألته عن ضالتي المنشودة ، وكان جوابه مواعيد عرقوب[1] .

* * *

١ كان الاولى بهذه القصة ان تكون في الفصل الاول من الخاص بالشجاعة الحربية ، ولكن الذي حصل انه بعدما انتهت ملازم هذا الكتاب من الطبع وقع نظري صدفة على مسودتها وعندئذ ادركت انني نسيت تقديمها للطبعة .



فهرس الجزء الثالث

تابع الفهرس

تابع الفهرس

صفحة

انتهى الفهرس



استــــدراك

على الرغم من الجهود التي بذلت دون وقوع بعض الغلطات المطبعية . وعلى الرغم من وضع جدول موضحاً فيه الخطأ والصواب ، فقد وقع بعض الغلطات المطبعية الجزئية التي لا تخفى على القارىء الكريم ، وكان ضيق وقت المؤلف المحصور باجازته الادارية من اهم الاشياء التي قضت بعدم وجود الوقت الكافي لتصحيح كتــاب كهذا الكتاب البالغ صفحاته ما يزيد عن الف صفحة ونيف الشيء الذي استرعي كريم انتباه القارىء اليه هو ان الكثير من الغلطات وقعت في القصائد الشعبية التي بقدر ما تفوت على اصحــاب المطبعة بحكم جهلهم بمعرفتها بقدر ما تفوت علي ايضاً لانني حافظ لها غيباً مما يجعلني اقرأها بعقلي اكثر من قرائتي لها بعيني ، واعتقد جازماً انه لولا وجود الاستاذ حمد الجاسر العالم بالأدب الشعبي كعلمه بالأدب العربي لولا ذلك لوقـــع من الغلطـــات في القصائد الشعبية ما هو اكثر من ذلك .